ارتياد الآفاق

الذهب والعاصفة

رحلة إلياس الموصلي إلى أميركا

أول رحلة شرقية إلى العالم الجديد

1668 - 1683

حررها وقدم لها: نوري الجراح

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع

الذهب والعاصفة

رحلة إلياس الموصلي إلى أميركا

الذهب والعاصفة ، رحلة إلياس الموصلي إلى أمريكا ، أوّل رحلة شرقيّة إلى « العالم الجديد » / أدب رحلات
إلياس الموصلي / مؤلف ، [حرّرها وقدّم لها : نوري الجرّاح]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
التنفيذ والإشراف الفنّي :
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

الذهب والعاصفة

رحلة الياس الموصلي إلى أميركا

أول رحلة شرقية إلى "العالم الجديد"

1683 - 1668

حررها وقدم لها: نوري الجراح

ارتياد الآفاق

ارتياد الآفاق

يشرف على هذه السلسلة :
نوري الجراح

. . . «وأيضاً في هذا الجبلِ رأيتُ أغصاناً ساوية معدلة من غَير ورق ، وفي كُلِّ غُصنٍ ثلاث جوزاتٍ مثل القطن ، فإذا انفتحَ جانبُ الجوزةِ رأيتُ داخلَها حمامةً بيضاءً بجناحها ورجليها ، ومنقارُها أحمرُ وعيونُها سودٌ فهذه يُسَمُّونها زهرة الرُّوحِ القُدْسِ . وكثيرٌ من حُكّامِ السبنيوليّة أرادوا أن يُحضروا منها ويزرعوها في إسبانيةَ فما قدروا . .» .

من «الذّهب والعاصفة» ص (54)

. . . «وهناك حَكوا لي عن هنديٍّ له معدنٌ قويٌّ غنيٌّ وما اكتشفَ عليه السبنيولية ، فكانَ يروحُ هو وابنُه إلى المَعْدنِ سرّاً في اللّيل ، ويقْطَعانِ حجارةَ الفضّة ، ويأتيان بها إلى داره ويصفّيانها بالنّار ، فلما حكوا لي أنّه أعطى حسنةَ قدّاسٍ أربعينَ ألفَ غرشٍ أرسلتُ وراءَه ودعوتُهُ عندي وقلتُ له : أخبرني لأجل أيِّ سببٍ لم تكشف هذا المعدنَ للملكِ ، حتّى ينعمُ عليكَ وعلى أولادِ أولادكَ من فرايضٍ ومراتبِ الحُكْم في هذه البلدة ؟ فأجابني قائلاً : رأيتُ هنوداً أقْدَمَ منّي كشفوا حالهم للسبنيوليّةَ وماتوا ، أخيراً ، تحت العذاباتِ . هذا هو السَّبَبُ . فأنا صدَّقْتُ كلامَهُ من جهةِ الظلمِ الّذي نظرتُهُمْ يعملونه على الهنود» !

من «الذّهب والعاصفة» ص (94)

استهلال

تَهْـدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحـدٍ من أعـرقِ ألوانِ الكتـابةِ في ثقـافـتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشَّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صور دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعَجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتَّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي

المقدّمة

I

يُعتبر الرَّحالةُ العربُ والمسلمون من بين أَكْفأ من جابَ جغرافيا العالم. وتقفُ في طليعةِ أدبِ الرحلة، في كل الثقافات، تلك المدوّناتِ البارعةِ التي وضَعَها الرَّحالةُ الأوائل، بدءاً من القرن الرابع الهجري، من أمثال أبي دلف الينبوعي، وابن بطوطة، وابن جبير، وابن فضلان، وناصر خسرو، وعشرات غيرهم على مدار العصور والأزمنة، وصولاً إلى عبد اللطيف البغدادي، والشيخ عبد الغني النابلسي، وأحمد فارس الشدياق، ورفاعة الطهطاوي، ومحمد لبيب البتنوني، ومحمد كرد علي، وأمين الريحاني، والأمير محمد علي، وسواهم.

طافَ الرَّحالةُ العربُ والمسلمون خلال رحلاتهم أقاليمَ العالمِ القريبة منها والبعيدة، وكانوا رواداً في استكشاف الأمكنةِ والكتابة عنها وعن ناسها، عاداتهم وتقاليدهم، وثقافاتهم، تاركين وراءَهم ثروةً معرفيَّةً مازال أغلبُها مهملاً، وكثيرُها لمْ يُدرس.

وقد غطَّى فنُّ الرحلة المكتوب بالعربيَّة شتَّى نواحي الاهتمام. فهناك

رحلات السُيّاح العادين ، رحلات الجغرافيين ، رحلات المفكرين الباحثين عن الحقائق الروحيَّةِ والفكريَّة ، رحلات المتصوِّفة والحجَّاج إلى الديار المقدَّسة ، الرحلات الدبلوماسية ، رحلات صائدي الوحوش والحيوانات ، رحلات الجواسيس ، ورحلات الصحافيين ، والسياسيين ، وغيرها .

لطالما لفتَ انتباهي ، خلال سنوات إقامتي في بريطانيا ، ذلك الشغف الذي يَستقبل به القارئ يومياتِ الرَّحالة والجوَّالين الأوروبيين في العالم ، والرَّواج الذي تلقاه هذه اليوميَّات التي تطرحها المطابع سنوياً بالمئات ، وتحمل إلى القارئ المعرفةَ بالطَّبيعةِ والبَشرِ والعمرانِ والظواهرِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وتنقله إلى عوالم أخرى مختلفة عن عالمه . مقابل ذلك ، كنت أستغربُ ما حلَّ بهذا الجنس الأدبيِّ في ثقافتنا العربيَّة من تراجع إلى درجة الاختفاء ، يعكس ضُمورَ الحسِّ المبدع لدى كتّابنا في علاقتهم بالمكان ، وقعودهم عن طلب معرفةِ الآخر واستجلاءِ عالَمه . وهو ما يُعتبرُ انتكاسةً وتقهقراً معرفيّين ، إذا ما قورنت الصُّورةُ الراهنة بالشأو الخطير الذي بلغه العربُ قديماً على هذا المَيْل ، وما تركه جغرافيوهم ورحالتهم من آثارٍ قيِّمة .

وأدبُ الرحلة يقوم ، أساساً ، على شَغَفٍ في خَوضِ مغامرةِ اكتشافِ الذَّات وموقعها من العالم ، من خلال استكشاف الآخر وعالَمه ، وقياسِ بُعده وقُربه عنَّا ، ودرجاتِ اتفاقه واختلافه . فالرحلةُ محاولةٌ لارتيادِ المجهولِ ، والعَودة بالأخْبارِ والصُّور عمَّا كنا نجهلُ وجودَه . وفيها إلى النَّقْلِ تأليفٌ ، وإلى الكَشْفِ توهّم ، وإلى العِلْمِ عجائبُ وخرافات . ولعل عَمَلَ المخيِّلة في أدب الرحلةِ لا يقلّ تأثيراً عن عَمَلِ البحث ، وحرّية الخَيال لا تقلّ أهمية عن دقّة الملاحظة والأمانة في التدوين ، ما دام النسيجُ الثقافي للمكان والآخر يُقرأ من منظور مختلف ، وما دامت الثقافةُ ، في أفقها الجمالي ، مزيجاً مما هو واقعي وغرائبي معاً .

إضافة إلى ما سلفَ فإن أدبَ الرحلةِ يقوم في جانبٍ منه على سعي لإبصارِ الحادثِ في مكانٍ بعيد ، بصفته المدهشَ ، وإعادة بناءِ صورةٍ له في المخيّلاتِ والأذهانِ . وربما يكون هذا الملمحُ هو الأكثر إثارة لمسافرٍ يدوّنُ يومياتِ رحلته .

على هذه الخلفيَّة قرأتُ أعمالَ الشدياق ، والطهطاوي ، ومحمد رشيد رضا ، وخير الدين التونسي ، وآخرين من المفكرين النهضويِّين العرب المأخوذينَ بالغربِ وحضارتِه

الحديثة ، ممن يُمكن تسميتُهم بـ (جيل الدهشة) . ومن بين أسبابي أن أقفَ على جذورِ تفكيرنا العربيِّ المنسحق أمام الغرب ، وأصولِ تلك النَّظرةِ الدونيّةِ نحوه ، التي سادت في أدبياتنا خلال القرن العشرين ، واستحكمت من عقول النُّخب ، بصرف النظر عن مكوناتها الأيديولوجية المتعارضة .

في هذا السياق توصلتُ إلى جَمع عددٍ كبيرٍ من نصوصِ الرَّحالةِ العربِ إلى العالم ، التي وضعت منذ ما بعد حملة نابليون على مصر ، ودخولِ المطبعة ، وهي كتابات إما أنها صدرت في كتب ولم تعد طباعتها ، أو أنها نشرت في دوريات احتفت بهذا اللون الأدبي كـ«المشرق» ، و«المقتطف» ، و«المنار» ، و«الهلال» ، لكنها لم تصدر ، لاحقاً ، في كتب ، كما هو الحال بالنسبة إلى نصّ الموصلي صاحب أول سياحة في الأميركتين الجنوبية والوسطى لرحالة من الشرق . وتعتبر أقدم وثيقةٍ من نوعها عن تلك البلاد يكتبها مؤلفٌ بالعربية .

II

كنتُ قد صرفتُ صائفةَ العام 2000 في مكتبة بالغة الثراء بالطبعات الأولى من كتب عربية وضِعتْ في القرون الثلاثة المنصرمة ، وطُبعتْ في القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين ، ولم تعد طباعتها ، وهي كتاباتٌ تراكم عليها الغبار بعدما غاب مؤلفوها ، وارتحل أكثر قرائها ، وآلت إلى النسيان . ومن بين ما كنت أفتش عنه ، إلى جانب كتب الرحلات ، كانت المدوَّنات الشخصية للمفكرين والأدباء الذين ينتمون إلى الفترات المذكورة ، وكانت ثمرة هذا البحث في المكتبة عثوري على عشرات الكتب النادرة في العلم والأدب والتاريخ ، ولم تكن رحلة الموصلي بينها .

أول من نبهني إلى وجود هذه الرحلة كان الصديق منذر العكيلي ، وهو مثقف وتقني يعمل في حقل تكنولوجيا المعلومات ، ويشرف فنياً على «الموسوعة الشعرية» في (المجمع الثقافي في أبو ظبي) . فبينما هو يبحث عن أعمال لشعراء عرب كلاسيكيين حُققت أشعارهم ونشرت في الدوريات ، إذا به يعثر على نصّ الرحلة منشوراً في مجلة «المورد» العراقية مزوداً بمقدمة للباحثة العراقية ابتهاج

الراضي[1] ، فأرشدني إلى العدد . ولدى قراءته تبين لي أن النص سبق له أن نُشر ، للمرة الأولى ، قبل أكثر من سبعين عاماً ، في دورية «المشرق» التي كان يحررها الأب أنطون رباط[2] . لكن الأهم في كل هذا والأكثر إثارة ، أن النص الذي بات بين يديَّ كان عبارة عن ثروة حقيقية ، وإنني بإزاء أثر فريد من نوعه لكونه تسجيلاً لوقائع أقدم رحلة قام بها رحالة شرقي إلى أميركا في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وأن الرحلة التي دامت 26 سنة ، (1668 - 1683) جاءت في الفترة التي شهدت فيها القارة الأميركية حمَّى بناء المستوطنات والبحث عن الذهب والفضة وانتشار العبودية ، ونشاط «ديوان التفتيش» الكاثوليكي وعمليات التنصير والتعذيب والإبادة التي مارسها المستعمرون الإسبان ضد أبناء القارة الأميركية . والرحلة ، كما سيلاحظ القارئ ، حافلة بالقصص والمرويّات والوقائع حول ذلك .

لدى قراءتي النص وبحثي فيه تبين لي أن الباحثة المذكورة أهْمَلت مقدمة الأب رباط وأبقت على الهوامش التي وضعها للكتاب . ولدى عودتي إلى كتاب «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» للمستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي[3] عثرت على بعض المعلومات عن الموصلي ورحلته أضعفتْ بغناها مقدمة الراضي ، وجعلتها يسيرة الفائدة . وبت مقتنعاً بضرورة العودة إلى النص الأصلي المنشور في مطلع القرن

(1) تشير الباحثة في مقدمتها إلى أن زوجها الكتور سامي سعيد الأحمد كان أول من ترجم رحلة الموصلي إلى الإنكليزية عن النص الذي حققه الأب أنطون رباط ، فاسترعت الترجمة اهتمام صديقه الأستاذ المكسيكي أنطوان لويرا من قسم الدراسات الإسبانية والبرتغالية بجامعة كاليفورنيا ، وأن لويرا انكب على مطابقة ما جاء في رحلة الموصلي مع جغرافية وأحوال المناطق التي زارها ، ومع ما كتبه الرحالة الإسبان والبرتغال الأوائل عنها .

(2) الأب أنطون رباط اليسوعي ، رحلة أول سائح شرقي إلى أمركه ، المشرق ، المجلد الثامن (1905) ص 821 ـ ص 834 ، 875 ـ 886 ، 931- 942 ، 974 ـ 983 ، 1022 ـ 1033 ، 1080 ـ 1088 ، 1118 ـ 1128 .

(3) أغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . الطبعة العربية القاهرة 1961 والطبعة الروسية موسكو 1957 .

الماضي في «المشرق» .

وخلال الفترة المُنصرمة بين اطلاعي على النص المنشور في «المورد» والنص الثاوي في مجلة الأب رباط ، التقيت في مؤتمر علمي عقدهُ في مدينة العين (الإمارات) مركز زايد للتراث المستعرب الألماني من أصل تركي فؤاد سيزكين ، الذي يعتبر من كبار محققي المخطوطات في الجغرافيا وأدب الرحلة تحديداً ، فسألته : هل لديك فكرة عن تاريخ أقدم رحلة لشرقي إلى أميركا ؟ فاستبعد أن يكون التاريخ أبعد من مطلع القرن التاسع عشر . إذا ذاك قلت له أن التاريخ يمكن أن يكون أبكر من هذا بكثير ، وذكرتُ له الرحلة من دون أن أذكر اسم صاحبها ، وأكدت له أنني متوفّرٌ على النص . دُهِشَ ، وبدا غير مصدّق ، وأبدى رغبته في الاطلاع عليه .

وفي نهاية العام الفائت ، وبينما كنتُ أفتش عن بعض المراجع في مكتبة «كلية الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS » في جامعة لندن بصحبة الأستاذة وين تشن أويانغ المدرسة في الكلية ، إذا بي أقع في هامش لكتاب جغرافي على اسم الموصلي ، وذكر لرحلته وللأب رباط ، فسألتها ، وهي المهتمة بالنثر العربي القديم والوسيط إن كانت تعرف شيئاً عن الرجل ورحلته ، فنفت . والشيء نفسه حصل معي في القاهرة لدى لقائي ببعض الجغرافيين المصريين المهتمين بأدب الرحلة ، وخلصت إلى أن ظهورها منشورة في دورية لم يؤد الغرض ، ولا بدَّ من صدورها في كتاب .

الشخص الوحيد ممن فاتحتهم بأمر الرحلة وكان جوابه مختلفاً كان المستشرق البريطاني بول لندي من كامبردج ، والذي جمعني به هناك مطلع العام الحالي لقاء مطوّل في سياق عملنا المشترك على موضوعات جغرافية في إطار مشروع الـ The Golden Web . فما أن ذكرت له الرحلة حتى تبسم وبادرني القول : «رائع» . ثم أضاف بتواضع جم : «فرغتُ لتوي من ترجمة النص نفسه إلى الإنكليزية» . وفي أبوظبي ، حال عودتي من لندن ، رجعتُ إلى أعداد المجلة المذكورة واستخرجتُ نصَّ الرحلة ، وشرعتُ في قراءتها ثانية ، وكنتُ عزمت على الشروع في تحريرها اعتماداً على هذا الأصل ، لتصدر ، وللمرة الأولى ، في كتاب ، وتكون في متناول قارئ العربية .

III

اكتشف الأب رباط مخطوط الرحلة في أواسط مايو من سنة 1905 في مكتبة مطرانية السريان في حلب، وشكّل عثوره مفاجأة له. وعن ذلك يقول: «بينما كنّا نطالعُ المخطوطات المحفوظة في مطرانية السريان بحلب استلفت نظرنا كتاب عربي عنوانه سياحة الخوري إلياس الموصلي فاختلسنا أويقات الفراغ لقراءته وأخذنا العجب لما رأينا كاهناً شرقياً زار أكثر الأنحاء الأمركية في القسم الثاني من القرن السابع عشر ووصفها وصفاً لا يخلو من اللذة...»[4]

وفي وصفه للمخطوط أنه: «مجلّدٌ تجليداً قديماً طول الوجه 21 سنتمتراً في 15 س عرضاً، وفي كل وجه 21 سطراً. وهو مكتوب بخط جليٍّ غير متقن يحتوي على 269 صفحة» ويشكّل نصُّ الرحلة جزءاً من المخطوط، فهو يقع في 100 صفحة فقط، في حين شغلت الصفحات الباقية فصول في تاريخ أميركا والغزو الإسباني لها، وضعها الموصلي استناداً إلى مؤرخي الحملات الإسبان، أهملها ربّاط لكونها ليست من أصل الرحلة. وفي المخطوط إشارة إلى أنه تم نسخه في 5 كانون الثاني سنة 1817. ولم تتوافر لدى رباط يومها معلومات عن وجود نسخ أخرى من المخطوط، ليمكنه أن يقارن بها نسخة مطرانية حلب. من ثم فإن كراتشكوفسكي يورد لاحقاً معلومات عن وجود نسخ أخرى من الرحلة في كل من بغداد (؟) والقاهرة (؟)[5] وفي مكتبة ديوان الهند (India office) في لندن. وهذه المخطوطات، كما يعتقد كراتشكوفسكي، تسمح بإدخال تعديلات على النص الذي حققه رباط.

IV

الرحالة

هو إلياس ابن القسيس حنّا الموصلي الكلداني من عائلة عمودة، حسب الأب

(4) انظر مقدمة الأب رباط في ملاحق الكتاب.

(5) «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ص ص 701 - 763. ولم يذكر كراتشكوفسكي أياً من المكتبتين اللتين تحتويان على النسختين. راجع أيضاً نص كراتشكوفسكي في ملاحق الكتاب.

أنطون رباط ، أو عمون ، حسب كراتشكوفسكي[6] . وبينما يكتفي الأب رباط في ترجمته لصاحب الرحلة بما نذكره ، هنا ، باستثناء إشارته إلى ماذكره الموصلي نفسه في متن رحلته ، من أن له ابن أخ اسمه يونان أتم دروسه في روما ورجع إلى حلب سنة 1670 [7] فإن كراتشكوفسكي يقدم معلومات أوفى عن الرَّحالة ورحلته ، وإن تكن غير كافية ، ولا تشبع فضول القارئ في الكشف عن شخصيته . فنحن لا نستطيع ، إلا تكهناً أن نحدد تاريخ ميلاده ، أو وفاته ، ولا من هو أبوه أو أمه ، أو إخوته . وعلى رغم أن كراتشكوفسكي يذكر أن للموصلي إخوة لعبوا أدواراً مهمة في الحياة الدينية والاجتماعية ما بين الموصل وحلب ، فهو لا يذكر المصدر الذي استقى منه المعلومة . ولن نكون متأكدين من طبيعة نشأة صاحب الرحلة ، ولا أخبار لدينا عن المدارس التي انتظم فيها . ويستمر هذا الفقر في المعلومات عنه ، ليشمل وفاته ، فلا سبيل إلى تحديد تاريخ الوفاة ، أو مكان دفنه ، وإن كان الأرجح ، كما ذكر المستشرق الروسي ، أن يكون قد مات ودفن في روما ، وما من برهان على ذلك سوى وجود كتاب للصلاة بالعربية مطبوع في روما سنة 1692 ، يحمل إشارة إلى الموصلي بصفته الشخص الذي أنفق على طباعته . ويلفت المستشرق الروسي الانتباه إلى أن الكتاب المذكور عدد الألقاب العالية التي خلعها على الموصلي كلٌّ من البابا إنوسنت الثاني عشر ، وملك إسبانيا ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن رحالتنا قدّم يومها خدمات جليلة لكل من الفاتيكان والبلاط الإسباني . من هذه الألقاب ، كما وردت في مقدمة الراضي ، «بروتونو تاريو رسولي» (Protonotarios Apostolios) وحامل صليب مار بطرس (Staurophorus) وكونت بالاتينو ، وكاهن كنيسة ملك إسبانيا ، فضلاً عن منصبه الشرقي الذي منحته له الملكة مشرفاً على كنيسة بغداد الكاثوليكية .

من جهة أخرى ، يذكر كراتشكوفسكي أن الموصلي ينتسب إلى عائلة قدمت للحياة الروحية عدداً من البطاركة النساطرة ، وأن هذا البيت ارتبط ، بصورة وثيقة منذ

---

(6) المصدر نفسه

(7) انظر نص الرحلة

1553 مع الفاتيكان ، وكان لهؤلاء البطاركة ، انطلاقاً من روما ، صلاتهم القوية مع مختلف الطوائف الدينية المسيحية شرقاً وغرباً . ونحن نميل إلى الأخذ بهذا الاعتقاد لاتبارين ، أولهما : الدقة التي عهدت عن كراتشكوفسكي ، والتي كشفت عنها رصانة أبحاثه . وثانيهما : المكانة التي سيتبين لقارئ الرحلة أن الموصلي تمتع بها على أعلى المستويات السياسية والدينية في العواصم الأوروبية الأربع : روما ، باريس ، مدريد . لشبونة . فقد ارتبط هذا بصداقات وعلاقات دينية ودنيوية مع أرفع الشخصيات في زمنه ، واستُقبل من قبل البابا إنوسنت الحادي عشر (1676-1689) ، وسلَّمه هدية جلبها له من أميركا . وقبل بدء رحلته استقبله ملك فرنسا لويس الرابع عشر بحفاوة ، وكذلك فعل أخوه أورليانوس ، واستقبلته أم كارلوس الثاني ملك البرتغال الملقبة بحنة النمساوية ، ثم ملكة إسبانيا أكثر من مرة ، وكتبت إلى كافة الحكام والبطاركة التابعين لها العاملين في المستعمرات الأميركية لتسهيل مهمته والاهتمام به بصورة استثنائية ، فكان مصرّحاً له أن يمضي حيثما امتد تراب في القارةِ وخفقت عليه الأعلام الإسبنيولية ، من دون أن يتعرض للمضايقات التي كان يتعرَّض لها سواه من المسافرين ، فكان يمرّ بنقاط التفتيش المتشددة في المستعمرات الإسبنيولية من دون أن يخضع متاعه حقائبه لأي تفتيش ، في وقت كانت أعمال البحث عن الذهب والفضة في أوجها ، كما أسلفنا ، وعقوبة المهربين المحقَّقة الإعدام .

لابد ، هنا ، من الإشارة إلى أن الأوساط التي ارتبط الموصلي بعلاقات متينة معها كانت على الدوام ، هي إما السلطات الزمنية ممثلة بوزراء البلاط الإسباني والحكام المشرفين على إدارة المستعمرات ، أو المراجع الدينية العليا ممثلة برؤساء «ديوان التفتيش» الكاثوليكي الإسباني في نسخته اللاتينية . وسوف نلاحظ ، بشيء من الاستغراب ، كيف أن الموصلي الذي تندّم على عدم اصطحاب شماس شرقي معه يساعده في أعماله الكنسية ، لم يعقد خلال رحلته أيَّ مقارنة بين الخبرات والظواهر التي عاشها ورآها في أميركا خلال تجواله ، وبين نظيرها في مسقط رأسه في الموصل ، حتى لكأن شرقيته لم تشكِّل له ، إلا في ما ندر ، مرجعاً يعتد به . ومع ذلك لابد أن نحسب للرجل أنه قام في مراتٍ كثيرة بأعمال القدَّاس باللغة السورية السريانية ، وكان ذلك ، كما عَبَّرَ ، مقبولاً من الحضور إسبنيوليين وهنوداً حمراً مُنصّرين ، لا سيما

أنه كان يحمل مقتنيات وهدايا كنسية جلبها معه من القدس .

V

يذكر الرحالة الإيطالي فنشنسو مارية دي سانتا كاترينا دي سيينا الذي زار العراق في النصف الثاني من القرن السابع عشر فوصل بغداد سنة 1656 ، وغادرها سنة 1658 ووضع كتاب «رحلة إلى الهند الشرقية» : « تركنا بغداد مساء العاشر من تشرين الأول أنا والأب جوزييه وقسيس نسطوري كانت غايته روما مثلنا» ، ولم يكن هذا غير رحالتنا إلياس بن حنا الموصلي . يضيف : « . . . التقينا في الطريق بقافلة الطوبجي باشي ، كان القواص الخاص يتقدمها ، وعدد من الجنود ، يرفع أحدهم علم السلطان» ولم يكن هذا غير الطوبجي باشي المذكور في رحلة الموصلي الذي رافق القافلة وقدم لها جنوده الحماية إلى أن وصلت حلب . وبذلك يكون الموصلي قد انطلق في رحلة إلى روما سبقت رحلته الأوروبية - الأميركية بسنوات ، ولعله زار عاصمة الكثلكة أكثر من مرّة ، كما أشار كراتشكوفسكي .

VI
مسار الرحلة

انطلق الموصلي في رحلته من بغداد سنة 1668 قاصداً ، أولاً ، زيارة الأماكن المقدّسة فمضى في اتجاه دمشق برفقة الطوبجي باشي القبرصي ميخائيل كوندوليو مدبر الطوبخانات الشاهانية (المدفعية) في السلطنة العثمانية ، ومعهما جماعة من المرافقين . ومن هناك اتجه إلى القدس ووصلها في نهار عيد القيامة . وعاد إلى حلب ، ومنها نزل إلى ميناء اسكندرونة . ومن هناك أبحر إلى قبرص على ظهر مركب إنكليزي ، فزار قبر اليعازر في مدينة لارنكا ، ثم أبحر متجهاً إلى البندقية ، فعرج في طريقه على جزيرة كريت وجزر أخرى في المتوسط . وقد طالت رحلته فلم يدخل ميناء البندقية إلا بعد مرور سبعين يوماً على مغادرة ميناء اسكندرونة . وهناك أُودع قيد الحجز الصحي مدة أربعين يوماً . ومن البندقية سافر إلى روما ، والتقى البابا ، ثم

غادر في اتجاه فرنسا فتجول في مدنها وزار باريس ، وأقام في العاصمة الفرنسية نحو ثمانية أشهر ، وقام بأعمال الترجمة لدى الملك لصالح موفد السلطنة العثمانية .

وفي إيطاليا التقى شخصيات كبرى ، وحمل إلى البلاط الإسباني رسائل من البابا اكليمونس التاسع وسلمها إلى ملكة العرش الإسباني . وتسلّم منها خطابين إلى وزيرين لها في نابولي وصقلية بصرف مبالغ من المال له ، فمضى في جولات مكوكية بين المقاطعات الإيطالية وجزيرتها ، باءت كلها بالفشل . وفي مدريد استقبلته الملكة ثانية وأبلغها برفض وزيريها الانصياع لأوامرها ، فحزنت ! هنا يعتور رواية الموصلي خلل بيّن ، فالعرش الإسباني كان قوياً جداً في تلك الفترة ، ولا يعقل أن يجرؤ موظف فيه ، حتى لو كان وزيراً على رفض أوامر مليكته . ومن ثم نجد الموصلي ينتقل إلى لشبونة ، وهناك يحلُّ ضيفاً على الأمير دون بيدوا لسبعة أشهر ، ويلتقي ، كما ذكرنا ، أم الملك كارلوس الرابع ، والوصيَّة على العرش ، ثم يعود إلى مدريد ، ويقيم في ضيافة الأمير الدوق ده أوبرو ، وفي قصره يتعرّف إلى مربية الملك التي استخرجتْ له تصريحاً للقيام بأعمال القدّاس للملك في كنيسته ، فيعجب الملك به . وفي هذه الأثناء يلتقى رئيس «ديوان التفتيش» . وفي الفترة نفسها ، وتقديراً له على أعماله تأمر الملكة مربية الملك بأن تسأل الموصلي إن كان يطلبُ شيئاً تنعم به عليه ، فيستمهلها الوقت ويستشير أصدقاءه ، وعلى رأسهم رسول البابا في مدريد الكاردينال ماريسكوتي ، فينصحونه بأن يطلب من الملكة الحصول على تصريح هو بمثابة أمرٍ قاطع يجيز له العبور إلى أميركا أو «بلاد هند الغرب» . وفي القصر يكون له ما أراد . أما الأمير الذي استضاف الموصلي في مدريد فقد جهزه بكل ما يحتاجه في السفر وسلَّمهُ رسائل توصية إلى بعض أصدقائه هناك .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر فبراير سنة ألف وستمائة وخمس وسبعين (1685) أي بعد مرور سبع سنوات على مغادرته بغداد ، وصل الموصلي إلى قادش ، والتقى دون نيقلاوس ده كوردووا جنرال السفن ، الذي أفرد له غرفة خاصة في السفينة الملكيَّة التي تُبحر إلى أميركا مرة كل ثلاث سنوات وتحضر من هناك خزينة الملك من المال الذي يجنى للعرش من ثروات المستعمرات .

وحتى ندرك مدى الاهتمام الذي حظي به الموصلي على المستوى الرسمي

والكنسي في كل من مدريد وروما ، لا بد من أن نذكر هنا أن ركوب السفن إلى أميركا في ذلك الزمن كان حكراً على الإسبان ، فلم يكن يُسمح لتاجر أو كاهن غريب عن جنسهم أن يسافر إلى تلك البلاد ، وذلك لاعتبارات دينية واقتصادية ، فقد كانت التجارة والتبشير بالإيمان الكاثوليكي حكراً على الإسبان .

VII

في طريقه إلى أميركا مرَّ الموصلي بجزر الكناري (الخالدات) ، وصولاً إلى كاراكاس ، فجزيرة مرغريتا ، فكرتاخينا ، وبورتوبيلو في فنزويلا ، ثم إلى باناما ، مروراً بمئات المدن والقرى والجزر . وتجول في البيرو وغواتيمالا ، وكولومبيا والتشيلي وبوليفيا ، ووصل إلى مناطق خط الاستواء ، وزار مناجم الفضة والذهب والزئبق في المستعمرات . وفي طريق عودته إلى أوروبا ، بعد سياحة دامت ثماني سنوات متّصلة ، زار المكسيك ، التي يسميها في رحلته (بلاد ينكي دنيا) ، وأميركا الوسطى ، وتوقف في جزيرة كوبا .

ثم من هناك انطلق في رحلة العودة إلى أوروبا ، وكان أول من استقبله في ميناء قادش رجال «ديوان التفتيش» الذين التزموا أمر رئيس الديوان بعدم تفتيش متاع الموصلي . ومن هناك سافر إلى إشبيلية لبضعة أيام بقصد استرداد دين له ، ثم عاد إلى قادش ومنها توجه رأساً إلى روما للقاء البابا .

دوّن الموصلي القسم الأعظم من يومياته ومشاهداته ، في منزل جميل في ليما عاصمة البيرو سنة 1680 . وليس لدينا معلومات عن تاريخ فراغه منها . وقد كتبت الرحلة بلغة ركيكة تجمع بين العامية والفصحى ، استكملت ، بدوري ، تصويب ما مرَّ عنه الأب رباط من أخطاء لغوية ولم يصوّبه . ويمكن وصف عملي في تحرير هذه الرحلة بأنه اقتصر على ضبط النص وهوامشه ، وشَكْله عند الضرورة ، وشرح بعض الكلمات العامية أو المهجورة من التداول وضعها في بين أقواس في المتن نفسه ، تسهيلاً لعملية القراءة من جهة ، ولئلا تتداخل مع هوامش الأب رباط ، من جهة ثانية ، وتزويد المتن بعناوين جديدة تضيء على الجوانب الأدبية فيه ، وتقسيم الرحلة إلى أربعة أجزاء بما يسهل على القارئ قراءتها حسب مراحلها الجغرافية : (الرحلة

الأوروبية : من بغداد إلى لشبونة) ، (الرحلة الأميركية : من مدريد إلى كاراكاس) ، (الرحلة المكسيكية : من تابوكا إلى مكسيكو) ، (رحلة العودة : من مكسيكو إلى روما) .

وعلى رغم أنني أنظر إلى جهدي على أنه ناقص بالضرورة ، وكان يمكن أن يكون أكثر استجابة إلى شروط البحث العلمي ، في حال توفرت لدي نسخ أخرى مخطوطة من الرحلة ، لإعمال المقارنة وسد النقص أو الثغرات المحتملة ، والكشف عن جديد ممكن في ما يتعلق بصاحب النص وسيرته ، وهو ما يسمح بإخراج العمل إلى النور بصورة أقرب إلى الكمال ، إلا أنني آثرت أن أتعجّل في إخراج هذا العمل إلى النور ، مرجئاً الأمر إلى المستقبل ، لعلي أتمكن من تحقيقه في طبعة لاحقة ، أو يحققه غيري من الدارسين المعنيين بأدب الرحلة ، ممن سيطلع على الكتاب ويجد لديه الدوافع والأسباب الكافية للقيام بذلك .

تحفل الرحلة بالأخبار والقصص الواقعية منها والعجيبة ، وتكشف عن التقاطات ذكية ، ويتمتع الكاتب بشيء غير قليل من الموضوعية . وعلى رغم أنه كان يتحرك في دائرة «ديوان التفتيش» فإنه ، ربما بسبب أصوله الشرقية أو لنزاع بين وعيه الكنسي وضميره الإنساني ، لم يكن راضياً تماماً ، عما أنزله الديوان بالسكان الأصليين من ألوان العقاب الجماعي ، وما ارتكبه بحقهم من جرائم كشفت عن الوجه البشع للتحالف غير المقدس بين الاستغلالَين الاقتصادي والديني الذي خضع له سكان القارة ، وما أسسه هذا الاستغلال من تمييز باسم الدين والعرق واللون .

ونحن حتى عندما نقرأ على لسان الموصلي عبارة «الهنود الكفرة» فإن استعماله لها يبدو مصدره شيوعها في الدرجة الأولى . بينما نجد أن مثقفاً من طراز الأب رباط يستعمل عبارات أكثر قسوة عندما يصف ما للكنيسة الكاثوليكية من فضل مزعوم على السكان الأصليين بقوله : «وكلٌّ يعلم أن الشعوب التي كانت في أدنى درجات الهمجية أصبحت بفضل المرسلين في أعالي سُلَّم الحضارة»(8) . والحق أن الأمر لم يكن هكذا حتى بعد قرنين من رحلة الموصلي ، فضلاً عن أنه لم يكن هكذا في أي

---

(8) انظر مقدمة الأب رباط في ملاحق الكتاب .

يوم مضى . فالسكان الأصليون كانت لهم حضاراتهم العريقة التي عاصرت حضارات حوض الرافدين . ولم تنقطع الأعراف الاجتماعية والثقافات الخاصة بهم إلا مع الغزو الإسباني الاستعماري للقارَّة . ورحلة الموصلي تكشف عن صور مؤلمة لأوضاع أحفاد حضارة المايا والإنكا وغيرهم من الأعراق التي سكنت القارَّة منذ أقدم الأزمان ، وتنقل الرحلةُ قصصاً حزينة وأخباراً متواترة عن المصائر المأسوية التي تسبب لهم بها الاستعمار الإسبنيولي ، وما كرسه ذلك من خوف تأصّل في الشخصية الوطنية لهؤلاء السكان . في هذا السياق يمكن أن يحسب للموصلي أن نبرته في الوصف هادئة ، وخطابه يتسم بشيء من الموضوعية . فهو قلما ترك لمشاعره العنان . وتكشف أخباره ، في حالات معينة ، عن اتزان كبير في عرض الواقعة ، من دون إقحام لمشاعره الخاصة أو وجهة نظره ، أو تأويل يفسد على القارئ تحليله الخاص لواقعة ، أو حكاية أو ظاهرة .

VIII

أخيراً ، فإن السؤال الذي ظل يدور في ذهني حتى ساعة كتابة هذه المقدمة للرحلة كان حول الدوافع والأسباب التي حملت الموصلي على السفر إلى ما وراء البحار وصولاً إلى ما كان يُعتبر في ذلك الزمن أبعد مكان في الأرض . فهل كانت وراء هذه الرحلة مهمة رسمية ، كنسية ، أو سياسية لم يفصح عنها الرَّحالة ، أم أنها مجرد مغامرة شخصية ؟

وإذا كان الأمر يتعلق بتكليف كنسي من البابا ، أو من «ديوان التفتيش» ، فما هي طبيعة هذا التكليف ، ولماذا اختير الموصلي ابن الكنيسة الشرقية لهذه المهمة ، وليس أي شخص ، آخر روماني أو من جنسية أوروبية أخرى مثلاً ؟!

ترى هل كان لشخصية الموصلي وما يتمتع به من كفاءة وخبرة ، فضلاً عن علاقات أسرته بالفاتيكان وارتباطها المصيري بعاصمة الكثلكة ، دورٌ في اختياره لمهمةٍ ، ليس لنا إلا أن نتخيل أنها تتطلب شخصية توفيقية حادة الذكاء ، ملتزمة بالمؤسسة الدينية الكاثوليكية التي تعتبر نفسها مؤسسة جامعة مانعة فوق الأقوام والجنسيات والجغرافيات ؟

إن قراءة دقيقة للإشارات التي أطلقها الموصلي حول وجود نزاعات بين شخصيات

كبيرة كنسية وسياسية ، وللوقائع التي رواها عن دوره كوسيط بين وزراء وبطارقة ومطارنة متصارعين على النفوذ في المستعمرات ، فضلاً عن وجود تجمعات ضخمة من السكان الأصليين المتمردين على السلطات الإسبانية ، ربما أمكنها أن تسلّمنا أول الخيط لإدراك الدوافع التي وقفت وراء رحلته الأميركية . فقد يكون الفاتيكان وجد في شخصية الموصلي ضمانة لتمثيل الوجه عابر القارات للكاثوليكية ، الراغب في أن يبدو مترفّعاً عن الصراعات الدائرة في القارة ، لاسيما إذا أخذنا في اعتبارنا الأطراف الإنكليزية والهولندية والفرنسية وحتى البرتغالية ، التي كانت في نزاع مرير على النفوذ مع الحكام الإسبان المستأثرين بحصة الأسد من ثروات القارّة ، وهذه الأطراف الغربية المتنافسة كانت لها مصلحة كبيرة في تأليب السكان الأصليين على الاستعمار الإسباني لبلادهم . والموصلي - باعتباره مشرقياً - يمكن أن يكون وسط المفاعيل والآثار التي تتركها هذه الصراعات على المستوى الداخلي ، أي على صعيد الكنيسة والحكام المحليين ، فوق شبهات التحيّز إلى طرف من الأطراف ، إلى جانب كونه شخصية موثوقاً بها لدى كل من البابا والقائمين على «ديوان التفتيش» الذي كانت له اليد الطولى في القارّة . وما يدعم هذا التصور تلك الحالات التي لعب فيها الموصلي دور رسول سلام بين متصارعين . يبقى هذا احتمالاً بين احتمالات أخرى لعل أضعفها أن يكون رحالتنا قطع البحار ليجمع التبرعات لكنيسته الكاثوليكية الشرقية ، في وقت كان يمكنه أن يحصل على هذا الدعم من خزينة الكنيسة في روما ، أو من حصة الفاتيكان من كعكة «الغنائم» الاستعمارية التي تصل دورياً إلى خزينة البلاط الإسباني .

وأياً تكن الدوافع وراء رحلة الموصلي ، فإنَّ ما سلف لا ينتقص من أننا بإزاء شخصية مغامِرة لا تجبن عن اقتحام المجهول ، والاستعداد لمواجهة المفاجآت ، بحذر فطري وحيطة تكشف عن حسن تدبير ، فالموصلي أمّن على نفسه ضد المجهول تأميناً شاملاً ، وذلك بواسطة عدد كاف من التصاريح والأوراق الرسمية ، واستثمر لإنجاح رحلته كل ما عقده من صداقات حتى مع بعض أبناء البلاد الأصليين ، ورجع إلى أوروبا ومعه ، على الأرجح ، ثروة كبيرة . وهو لم يكن ، أبداً ، شخصية تنطوي على شيء من السذاجة ، كما ظنَّ رباط ومن بعده الراضي ، بل على العكس من ذلك ،

كان شخصية ذكية مقتدرة ، ومتأكدة من قدراتها . وكتابه هذا الذي نقدمه لقراء العربية يعتبر ، بحق ، وثيقة فريدة من نوعها على أوضاع القارة الأميركية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، فضلاً عن قيمته كأثر أدبي لا يخلو من طرافة .

نوري الجرّاح

أبو ظبي / مارس 2001

ديباجة المؤلف

الحمدُ لله الذي خلق البرايا بحكمته . واخترع الموجودات بأمره وكلمته ، وصور الإنسان على شبهه ومثاله ، وسلّطه على سائر المخلوقات بفضله وإنعامه ، ونهاه عن ثمر لا يأكله لئلا يموت موتا . فهذا المخلوق الضعيف لما خالف أمر خالقه ، وأَكَلَ من المنهي عنه تجرَّد من النعمة التي كان متسربلا بها ، وصار مطروداً مع ذريته من فردوس عدن إلى أرض الشقاء والحزن ، إلى أن تحنَّنَ عليه سبحانه وتعالى ، وشاء إعتاقه ، فأرسل ابنه الحبيب الأقنوم الثاني وكلمته الأزلية إلى بتول عذراء طاهرة ، وأشرف المخلوقات ، وحلّ في أحشائها حلولاً لا يُدْرَك ، ولبس منها جسداً كاملاً وصار إنساناً ما خلا الخطيئة ، وتردد بين العالم ، وصنع الآيات بشفاء المرضى وقيام الأموات ، ثم اختار له تلاميذ أناساً سذجاً صيادين ، وشرَّع لهم نواميس وقوانين ، وأمرهم أن يجولوا بكل العالم ويبشروا بكرازة الإنجيل الطاهر ، قائلاً لهم (متى 28 : 19) : امضوا واكرزوا وعمِّدوا باسم الأب والإبن والروح القدس ، فمن آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن . وقال لهم أيضاً : (متى 18 : 5) : فمن قَبِلكم فقد قَبِلني . ووعدهم ، أيضاً ، عند صُعوده أن يرسل لهم الرُّوح المعزي ليمنحهم نعمةً وحكمةً ، فبعد صعوده وجلوسه عن يمين الأب ، أرسلَ لهم الروح البارقليط فحلَّ عليهم كألسنة نار ، فصاروا يتكلمون بسائر اللغات المختلفة ، فانتشروا في سائر أقطار المسكونة جائلين مبشرين بالإنجيل ، وكانت آياتهم شاهدة لأقوالهم ، فقوم منهم حصلت لهم بلاد الشرق ،

والبعض ذهبوا إلى الغرب ، والبعض إلى القِبلة ، والبعض إلى الشمال ، فثبت بهم قول داود النبي القائل عنهم (مز 18 : 5) : في كل الأرض ظهرت بشارتهم وسُمعت أصواتهم في أقطار المسكونة ، كانوا عائزين منضاقين مطرودين محقورين لابسين جلود الحملان (عبرانيين 11 : 37) وكانت أشعَّة أنوارهم تشرق وتنير تلك الأقاليم المظلمة ، حتى إنهم بكرازتهم طهَّروا المسكونةَ من عبادة الأوثان ، وأرجعوهم من الضلالة والطغيان ، واختاروا لهم تلاميذ وأخلافاً ، وخوّلوهم تلك المواهب وإنعام الروح القدس ، لكي يتولّوا من بعدهم الرئاسة والتدبير ، جيلاً بعد جيل ، متداومين إلى انقضاء العالَمِين .

فأما الكنيسة المقدَّسة عروس السيد المسيح التي جعل مار بطرس الصخرةَ رأسها ومدبِّرها من بعد صعوده المجيد ، ومن بعده للذين يَخلُفونه ، فلم تزل تمتد أطنابُها وتتوسَّع أكنافُها ، حتى إنه لم يخل مكان وإقليم من أربعة أطراف المسكونة ، إلا وتجد فيه كرازة الإنجيل وصِحة الإيمان المستقيم بين طوائف مختلفة ولغات متفرقة ، وأما اللعين الثلاب ، عدوُّ الخير والثواب ، فلم يزل مجتهداً ومحترساً على تزعزع ضمائر المؤمنين حتى يطغيهم ويطرحهم من أحضان الكنيسة أمهم . فنصب لهم شباكَه وفخاخَه وزرع في قلوب البعض منهم زوان الحسد والكبرياء والعصيان . حتى إن بعض طوائف الناس أنكروا الطاعة للكنسية الرومانية ولرئيسها ومدبِّرها الذي هو الحبر الأعظم وراعي الرعاة العام . وجعلوا لهم رؤساء مختلفين مضادِّين بعضهم بعضاً حتى إنه ، تبارك وتعالى ، سلّط عليهم أعداءَهم ، فثبتَ قولُ السيِّد المسيح في إنجيله المقدَّس على لسان مار لوقا البشير في الفصل الثاني والخمسين مخاطباً اليهود قائلاً : إذا رأيتم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكلَّ الأنبياء في ملكوت الله ، فها هو ذا يكون الأولون آخرين والآخرون أولين . فلما تفرقت الطوائف المذكرة من أحضان الكنيسة المقدَّسة شاء السيد المسيح أن يُدخل عِوَضَهم أناساً مختلفي الأجناس والطِّباع ، غريبي الألسن واللغات ، قاطنين في البراري والجبال ، سالكين بعيشة وحشية لا فرق بينهم وبين البهايم ، معذَّبين ومنقادين بضلالة الشيطان ، فقومٌ منهم عبدوا الحجارة ، وطائفةٌ عبدت الوحوش ، وآخرون عبدوا الأشجار ، وغيرهم كانوا يقدمون ذواتهم ذبيحة للشيطان اللعين ، وكانوا ساكنين في الإقليم الرابع الذي كان مخفياً عن الأبصار

ومستوراً عن الأفكار ، حتى إن القديس العظيم معلم الكنيسة المقدسة مار اغسطينوس كان يظن أن هذا الإقليم هو غير مسكون من البشريين . فسبيلنا أن نبرهن ونبيِّن رجوع هذه الطوائف المذكورة إلى الإيمان الحقيقي ، واحتضانهم للكنيسة المقدَّسة ، حتى إن كثيرين منهم بعد دخولهم في الإيمان بالمسيح حُسبوا من جملة القديسين .

وأما هذا الإقليم الذي قَصَدْنا التكلُّم عنه فهو ممتدُّ الطولِ والعرضِ ، وهو أكبر من الثلاثة أقاليم الأخرى المعروفة بآسيا وأفريكا وأوروبا طولاً وعرضاً ، وقد جَعلوا له اسماً جديداً وسمُّوه ميريكا مسلوباً(*) وسوف نتكلم عنه في مكانه ، ونحرر سببَ كشفه وبيانه ، ونرقِّم كل شيء في حينه وأوانه . ونستعين بالله على الزيادة والنقصان ، والسهو والنسيان ، لأن ذلك يوجد في كل إنسان مُخلصٌ لله ، دائماً ، إلى الأبد .

إلياس حنا الموصلي

---

* بقوله إن « اسم أمركة مسلوب» يريد أن الإقليم الرابع الذي وصفه كان حقه أن يسمى باسم مكتشفه كريستوف كولومبس . قال الموصلي في الصفحة 201 من مخطوط الكتاب حيث يذكر تاريخ الاكتشاف : «وكان في رفقة المكتشفين رجل أسمه ميريكو من إيطالية من مدينة فلورنسة وكان نوتياً في المركب ذا تدبير وعلم وعقل . فشخَّص تلك الأرض وهنودها على ورقة (خارطة) وعرضها على ملك أسبانية فحينئذ سميت تلك الأرض ميريكا . . . وبالحقيقة كان الواجب أن تدعى باسم كولون (كولومب) لأنه كان المبتدئ والمجتهد في هذا الأمر . لكن بعدما انتشر هذا التكني في أفواه الخلائق وشاع على مسامع الناس جميعاً لم يكن ممكناً أن يتغير فبقيت تسمى ميريكا» .

الرّحلة الأوروبيّة

(1)

من بغداد إلى البندقية

فأقول أنا الحقير في الكهنة أني في تاريخ سنة ألف وستماية وثمانية وستين للسيد المسيح خرجت من مدينة بغداد قاصداً زيارة قبر المسيح في رفقة الطوبجي باشي المسمى ميخائيل آغا[1] . ثم إننا سرنا في درب القفر ، ففي نصف الدرب خرج علينا لصوص مقدار مائة نفر وصار بيننا حرب فظفرنا بهم .

(1) ننقل عن الصكوك والأوراق الخطّية المحفوظة في مكتبتنا ما نعرفه عن هذا الرجل : هو مخائيل كوندوليو (Condoleo) طوبجي باشي أو مدير الطوبخانات الشاهانية في الشام وحلب وبغداد ... إلخ . ولد في كريت وسكن دمشق الشام ، وكان يجول في البلدان بأمر الحكومة السنيّة ليتفقد أحوال الطوبخانات . وقد ذكره مراراً المرسلون في رسائلهم لما كان عليه من الثبات في الدين الكاثوليكي والعيشة المسيحية ، وكان لهم أعظم نصير بالمساعدة المادية والأدبية ، وكان كثير الثروة واسع الجاه متقد الغيرة . وقد ذكره بالثناء مراراً الأب يوحنا أميو Amieu رئيس الرسالة اليسوعية سنة 1646 وألمح إلى أسفاره إلى بغداد . وكان لمخائيل آغا أولاد وكّل بهم الأب هيرونيموس كيرو(Queyrot) المرسل اليسوعي في دمشق ، ليتلقنوا منه التعليم المسيحي والعلوم الأدبية ويدرسوا اللغة اليونانية التي كان يلقنها عندئذ الأب كيرو المذكور لتلامذته العديدين من الروم الملكيين .

وكان ذلك نهار عيد القيامة ، ونحن كان عددنا اثني عشر نفساً ، لكن بقوة آلات الحرب من التفنك[2] انتصرنا عليهم ، ومن هناك أخذنا دربنا وسرنا إلى مدينة الشام ، ومن الشام قصدتُ القدس الشريف وتشرَّفتُ بزيارة تلك الأماكن المقدسة .

ثم ذهبت إلى مدينة حلب . وبعد أيام انحدرت إلى ميناء البحر الذي يسمى إسكندرونة ، فمن هناك ركبت في مركب إنكليزي وسرنا قاصدين بلاد أوروبة .

فجزنا إلى جزيرة قبرص ، وهناك زرت قبر القديس عازار (اليعازر) وأخته مريم ومرتا[3] ومن هذه الجزيرة رحلنا . وبعد أيام جزنا على جزيرة قريطش التي تسمى كريد ، (كريت) . ومن هناك وصلنا إلى جزيرة زانطية وهي في حكم البنادقة مع جزيرتين أخريين قريبتين منها تسميان كورفو وسافولونية ، وهما أيضاً في حكم البندقية التي تسمى باللسان التركي واناديك[4] المعروفة في كل الدنيا ، ومن هناك سرنا .

---

(2) التفنك ، كلمة تركية معناها قصبة ، ثم جرى استعمالها باللغة التركية والعربية في حلب وما بين النهرين بمعنى البارودة أو البندقية ، وهذا المعنى دارج في البلاد الداخلية إلى الآن .

(3) يعرف القراء أن مكان قبر مريم المجدلية ومرتا ولعازر من المشاكل التاريخية التي لا يزال المؤرخون يتباحثون في حلها فالفرنساويون وسكان إقليم بروفنسة خاصة يذهبون إلى أنهم عاشوا بعد قيامة المخلص وماتوا في ضواحي مرسيلية ، ودفنوا على قلَّة يحجُّ إليها الزوار متبركين وهي قلة سنت بوم (Sainte Beaume)أما سائر المؤرخين لاسيما المحدثين فإنهم ينكرون حقيقة هذا الخبر ولا يسلمون بهذه الذخائر . ومن البراهين التي يثق بها الفرنسويون تقليد يعزونه إلى رهبان جزيرة قبرص ، جاء فيه أن مسيحيي الشرق يعتقدون نقلاً عن تقليد قديم أن لعازر ومرتا ومريم دفنوا في ضواحي مرسيلية . وقد ذكر العلماء البولنديون في المجلد الخامس عشر بتاريخ 22 تموز هذا الرأي استناداً إلى رسالة بعث بها الأب يوسف بسّون (Besson) اليسوعي بتاريخ 17 نيسان 1660 إلى الأب دي غوردان رئيس اليسوعيين في أس (Aix _ en Provence) لكننا نرى رحالتنا يذهب مذهباً آخر يتناقله اليوم أهلِ قُبرص الروم وهم يكرمون قبر القديس العازر في كنيستهم الكبرى . والله أعلم بالصَّواب .

(4) واناديك اسم البندقية أو فينيسية باللغة التركية .

في البندقية

وبعد أيّام عبرنا إلى ميناء البندقية المذكورة، وكانت عدة الأيام التي بقينا فيها على وجه البحر سبعين يوماً من خروجنا من إسكندرونة إلى أن دخلنا إلى هذا الميناء[5] ثم أخرجونا من المركب وجعلونا في بيت التطهير الذي يسمى نازاريت[6] باللسان الطلياني، فمكثنا هناك واحداً وأربعين يوماً كالمرسوم. وهذا النازاريت هو خارج عن المدينة، وذلك عادة في بلاد النصارى خوفاً من الطاعون. ففي تمام واحد وأربعين يوماً أتى الحكيم باشي لينظرنا هل بيننا أحد مريض، فبعد ذلك أعطونا دستوراً أن نخرج من نازاريت. فخرجنا ودخلنا إلى البلدة المذكورة وبقيت هناك عشرين يوماً متنزهاً وزرت كنائسهم. والغنى الذي نظرته في كنيسة مارمرقس الإنجيلي[7] هو شيء لا يوصف. ثم من بعد تلك الأيام توجهت إلى مدينة رومية العظمى، وسكنتها ستة أشهر، وزرت الأماكن المقدسة خصوصاً كنيسة مار بطرس الرسول الفريدة في المسكونة لحسنها، وبعد ذلك خرجت قاصداً بلاد فرنسة، فمررت على أرض أمير يسمى كران دوكه توسكانا[8] وهو يسكن بلد فلورنسة، وهذا الأمير هو غني جداً ذو مال وخزائن. ومن فلورنسة انحدرت إلى ميناء البحر، إلى بلد

---

(5) كانت السفن في القرن السابع عشر تقطع رأساً المسافة بين أساكل سورية والبندقية بثلاثين يوماً وقد كانوا يبلغونها بخمسة عشر أو عشرين يوماً، إذا ساعدتهم الريح، لكن العواصف والحاجة إلى الوقوف في موانئ جزائر البحر المتوسط كثيراً ما كانت تؤخر وصولهم إلى شهرين أو أكثر.

(6) نازاريت، بالطلياني (Lazaretto) والفرنساوي (Lazaret) المكان الذي فيه يقضي القادمون من البلاد الموبوءة حجرهم الصحي مدة أربعين يوماً، والكلمة مشتقة من اسم لعازر (Lazare) وبه سميت في الأجيال المتوسطة مأوي المصابين بالبَرص فيكون معناها الأصلي مستشفى البرص(Leproserie) وكان هذا المستشفى خارج البندقية يدعى سانت ماري دي نزارت (SteMarie de Naz areth)ولهذا سماه المؤلف نازاريت لا لازاريت.

(7) هي الكنيسة الكاتدرائيَّة الشهيرة في البندقية.

(8) وبالفرنسية (Le Grand Due de Toscane) وكان اسمه إذ ذاك الدوك فردينان الثاني (1621 ـ 1690) وكان لأمراء توسكانا قناصل في حلب والأساكل في ذلك العهد.

تسمى ليغورنة من حكم هذا الأمير المذكور . وبعد أيام قليلة سافرت إلى بلد جينوا ميناء البحر ، وهي تحت حكم أمير يحكم على ذاته . وهذا البلد شريف بالعمارات غني بالأموال .

(2)
جولة في فرنسة

ومن هناك ، أيضاً ، سافرتُ في البحر فوصلت إلى ميناء بلد مرسيلية ، من حكم فرنسة . ثم خرجنا إلى الأرض ومشينا إلى مدينة أوينيون التي هي تحت حكم سيدنا البابا[9] وهذه البلدة هي في فرنسة ، لكن ملوك فرنسة القدماء كانوا أهدوها مع بعض قرى إلى كنيسة مار بطرس . ومن هناك ركبنا في سفينة على النهر ، والخيل كانت تسحب السفينة ضد جريان الماء . فوصلنا إلى بلد ليون ، وهذا البلد من أعظم بلاد فرنسة من بعد مدينة باريس بلد ملك فرنسة . ثم إني اجتمعت هناك مع رجل

(9) مدينة أفينيون وما حولها من القرى اشتراها البابا اكليمنضس السادس من حنَّة ملكة صقلية وكونتس بروفنسة سنة 1348 وأقام فيه الأحبار الرومانيون من سنة 1309 قبل مشتراها إلى سنة 1377 ولبثت بعد ذلك تحت حكم الأحبار الرومانيين يدبر شؤونها باسمهم نائب رسولي إلى زمن الثورة الافرنسية فاغتصبها الثائرون سنة 1789 وتملكوا عليها .

قديس يسمى موسيو بيكيت[10] فهذا الرجل الشريف كان سابقاً قنصلاً في حلب ، وبعد رجوعه من حلب ارتسم أسقفاً على مدينة بغداد ، وكانت وفاته في العجم في بلد أمادان[11] وما لنا زمان لنتكلم عن فضائله وحسن سيرته .

في بلاط الملك

ثم بعد أيام خرجتُ من ليون وسرتُ إلى مدينة باريس تخت ملك فرنسة ، فدخلتها ورحت زرت الملك المنصور لويس فأكرمني ، ثم إني زرت أخاه أمير أورليانوس (DU d'orleans) وأهديته سيفاً وقدست له في الكنيسة التي في سرايته ، فأكرمني زائد الإكرام .

ثم رحت زرت أميراً يسمى سانتينيان (St.Aignan) ودفعت له مكتوباً كان

(10) فرنسوا بيكه (Francois Picquet) ولد في ليون 12 نيسان 1626 وجعل قنصلاً لدولة فرنسة وهولندة في حلب سنة 1652 حيث عاش عيشة تقوية مثال الفضيلة والغيرة ، وخدم الدين والدولة أحسن خدمة ، واشتهر بمساعدته للكاثوليكيين . نخص بالذكر ما صنعه لإقامة اندراوس بطريركاً كاثوليكياً على السريان . وقد أجمع المرسلون والشعب على حبه وإكرامه لما ازدان به من السجايا . وفي سنة 1662 عاد إلى بلاده فأقام فيها ثماني سنوات ثم سمي أسقفاً على سزاربوليس Cesarople ثم على بابل ، ونائباً رسولياً على العجم . واختاره لويس الرابع عشر سفيراً له لدى جلالة شاه العجم فعاد إلى سورية ومنها ذهب إلى العجم حيث خدم الكنيسة والشرق المسيحي خدمة مشكورة . توفاه الله في مدينة همذان بإيران في 26 آب سنة 1685 (اطلب حياته باللغة الإفرنسية .

اطلب Vie de Messire F.Picquet Par Mgr. D'Antelmy eveque de Grasse) أيضاً كتابنا الإفرنسي المعنون Documents inedits pour Servir a l'Histoire du Christianisme en Orient t.I) chez A. Picard et fils a Paris, Luzac et Co a Londres et Harrassowitz a Leipzig). صفحة 96 و 103 و 104 الخ) .

(11) يريد همذان من مدن إيران .

أعطاني إياه عمه البادري حنا الراهب الكبوجي[12] الصالح الذكر الذي كان رئيساً في حلب ، فعمل لي عزاً وإكراماً جزيلاً لأجل وصيَّة عمه البادري المذكور .

ثم إني نزلت في المكان ، وبقيت أتنزه في هذه البلدة العظيمة التي لا مثيل لها في كل الدنيا بحسنها وعدالة حكمها واستقامة شرعها وزيادة محبة أهاليها للغرباء . وقد نظرت أمراً يستوجب الذكر والمدح لفعلهم هذه الخيرات والإحسان ، وذلك عدة نساء عددهن سبع عشرة امرأة من الأشراف ، بعضهن عذارى وبعضهن أرامل . أما العذارى فقد تزهَّدن عن الدنيا وتركن كل نقدهن في الشركة المباركة ، وتسمى هذه الشركة باللسان الفرنساوي شاريته (CHARITE)[13] أعني مجمع الخيرات . هذا قد أسسوه من القديم . وأيضاً الأرامل قد تركن مقتناهن في هذه الشركة . وجميع هذه الأموال التي قد أوقفتها إلى هذا المجمع هي مؤمَّنة عند أناس الربح[14] وفي كل سنة تربح مليونين ، أي عشرين كرة من المال . ثم تجتمع هؤلاء النساء المباركات في الجمعة مرة ، ويقسمن هذه الدراهم المذكورة على الفقراء والمحتاجين ، وعلى الكنائس والأديرة ، وأيضاً على المرضى والغرباء ، وعلى الذين يكرزون بإيمان المسيح في بلاد الشرق . وأيضاً ينقدن لبعض بنات فقراء ويزوجنهن من هذه الصدقة . ونظرت أشياء كثيرة واجبة للمدح والوصف في هذه المدينة العظيمة .

---

(12) هو الأب يوحنا دي سنت اينيان (Jean _ Baptiste de St Aignan). الكبوشي كان مرسلاً تقياً وغيوراً . خدم الكنيسة في رسالة حلب والموصل سنين طويلة ، وكتب رسائل لا تزال محفوظة في مكتبات باريس وقد استنسخنا بعضها . ومن معاصريه الكبوشيين الغيورين الأب سلفستروس دي سانت اينيان ، ونظنه أخاه . وقد وجدنا توقيعهما مراراً في الرسائل المقدمة للكرسي الرسولي وللوزارة الإفرنسية مع توقيع الأب نقولا بوارسون Poirresson رئيس اليسوعين ومع رؤساء الكرميليين الأب يوحنا بطرس والأب يوسف ملاك .

(13) هي جمعية راهبات المحبة التي أسسها القديس (منسيور دي بول) فانتشرت في أنحاء المسكونة معطرة الغرب والشرق بعَرف فضائلها وخدمتها للمساكين .

(14) يريد المصاريف .

ثم وفيما أنا هناك وإلا أقبل قاصدٌ من عند السلطان محمد خان إلى الملك لويس ، وهذا القاصد يسمى باللسان التركي والفارسي إيلجي[15] فأنا رحت زرت هذا الإيلجي عدة مرات لأجل اللسان التركي ، ثم طلب مني أن أبقى في باريس ولا أروح فبقيت ثمانية أشهر .

(3)
بين إسبانيا وإيطاليا

ثم بعده خرجت من هناك قاصداً بلاد أسبانية فجزت على بلد عظيم يسمى اورليانوس (ORLEANS) ومن هناك رحت إلى مدينة تسمى بونراس[16] ومن هناك إلى مدينة بواتيه ، ومنها إلى مدينة تسمى بورديوس (BORDEAUX) التي هي على شاطئ نهر كبير . وقد قطع الملك لويس المذكور الجبال وخلط البحرين في بعضها ، وأصبحت المراكب تسير بسهولة في هذا النهر المذكور من بحر الأوقيانوس إلى بحرين أرضيين[17] ومن هناك سافرت إلى إسبانية وجزت على بلاد وقرى لا تحصى ، حتى

---

(15) هذا السفير العثماني هو سليمان آغا سفير السلطان الأعظم محمد الرابع وصل إلى طولون في ٤ آب سنة 1669 حاملاً رسائل جلالة السلطان الأعظم إلى الملك لويس الرابع عشر ، فسار في موكب عظيم إلى باريس وقابل المسيو دي ليون وزير الملك ، ثم حظي بمقابلة الملك في حفلة عظيمة . وبقي في باريس مدة كان فيها المسيو دارفيه (d'Arvieux) رفيقاً له . اطلب P.24 ET MEMOIRES DAR-VIEUX T.IV VANDAL:MIS DE NOINTEL

(16) لا نعرف مدينة أسمها بونراس بين بوردو وبواتيه إن لم يكن تصحيف تور (Tours) أو امبواز (Am-boise) أو بلوا (Blois) فهذه المدن الثلاث على شاطئ نهر اللوار على طريق سائحنا من بوردو إلى بواتيه .

(17) يشير إلى الأشغال التي أنجزت بأمر لويس الرابع عشر ليسهل على السفن العبور في نهر الجيروند (Gironde) وقد جمع بين ذراعي النهر الممتدَّينِ حول الأرض المسماة ما بين البحرين (Entre _ deux _mers).

بعد اثني عشر يوماً انتهيت إلى نهر وهذا النهر هو الحد بين حكم فرنسة وإسبانية ، وهناك قلعة تسمى سان جوان دي لوا (STJEAN DE LUX) من حكم فرنسة .

ثم جزنا النهر ووصلنا إلى قلعة من حكم إسبانية تسمى فونته أربيا (FUENTERABIA) وجانبها بلدة صغيرة تسمى إيرون (IRUN) ومن هناك قصدت بلدة تسمى سان سبسطيان وهي ميناء في البحر الغربي ومن هناك سافرت في الأرض إلى مدريد تخت ملك إسبانية ، وعبرت على بلدة تسمى بوركوس (BURGOS) ونظرت هناك ديراً لرهبان مار أوغسطينوس وكان في كنيستهم مذبح فيه صلبوت السيد المسيح الذي يسمى في اللسان السبنيولي كريستو ده بوركوم (CRISTO DE BURGOS)[18] ويظهر منه عجائب كثيرة . وأيضاً نظرت هناك في دير الراهبات قبر ملك سيس الأرمني[19] الذي كان يسمى أوانيسي تاكا وكتابة قبره باللسان الأرمني .

في بلاط ملكة إسبانيا

ثم من هناك سافرت وجزنا على مدن لا تحصى ، حتى إني وصلت إلى مدريد تخت الملك . ففي ذلك الحين كانت تحكم الملكةُ إمرأةُ الملك[20] فيليبه الرابع ، لأنه كان قد توفي الملك وخلف ابناً صغيراً يسمى كارلوا الثاني . ثم إني قدَّمتُ لها مكاتيب البابا أكلمندوس التاسع فأمرت أن يعطوني ألف غرش[21] من حاكم سيسيليه ، وألف غرش من حاكم نابولي . ثم إني أخرجت من يدها أمراً على تحصيل الدراهم .

---

(18) هو الصليب المنسوب إلى القديس نيقوديموس ويكرم في أسبانية من عهد قديم .

(19) لا نعرف عن هذا الملك شيئاً .

(20) أي حنة النمساوية (Marie _ Anne d'Autriche) امرأة فيلبس الرابع المتوفى سنة 1665 وكان لكارلوس الثاني ابنه أربع سنوات فقط فأقيمت أمه على إدارة المملكة لكن جوان(Juan d'Autriche) اغتصبها الإدارة مدة ولما مات عادت إلى الحكم إلى أن بلغ كارلوس أشده .

(21)كان الغرش عندئذ يعادل الدينار ecu قيمة .

فخرجت من مدريد قاصداً أرض إيطالية . فدخلت إلى كورة أراكـــون (ARAGON) ووصلت إلى بلد تسمى سراكوزا (SARAGOSS) حيث يتوج ملوك إسبانية . . . حينئذ نظرت هناك أخا الملك يسمى دون خوان ده أوستريـا . وهـو أخ طبيعي لهـــذا الملـــك ثم زرته فأكرمني . ومن هناك سافرت قاصـــداً البحر . فوصلت إلى مدينـــة تسمـــى برسلونا (BARCELONE) وهـــي من كورة كاتالونيـــة (CATALOGNE) وهي مـيناء البحـر الشـرقي فسـافـرت منهـا في البحـر مع جكتريـــات[22] ملـــك إسبانيـــة وبعد يومين عبرنا إلى ميناء تسمى كاتاكيس (CADAQUES) حيث يخرج وبقينا هناك خمسة وعشرين يوماً بسبب العواصف الكائنة في البحر في الكولفو ده ليون (GOLFE DU LION) لأن المجاز من هناك خطر عظيم .

ثم بعد زمان نهار الأحد قدسنا وأقلعنا وفتحنا الشراع وسافرنا ، فبعد يوم وليلة جزنا ميناء طولون من حكم فرنسة ، ومن هناك سافرت إلى رومية فنظرتُ ابن أخي الشماس يونان[23] قد ختم قراءته في المدرسة ، وهو قاصد أن يخرج من رومية ويرجع إلى البلاد ، بعد أن جهزه المجمع المقدس من كتب وأشياء أخرى لازمة .

رحلة فاشلة !

ومن هناك وصلت إلى نابولي وقدمت أمر الملكة إلى وزيرها الذي كان يحكم هناك الذي يقال له وي أرلي[24] فقرأه وجاوبني قائلاً : اذهب إلى سيسيلية وحصل الألف غرش ، فسافرت إلى جزيرة سيسيلية ودخلت مدينة تسمى باليرمو (PALERME) حيث وزير الملكة الحاكم الذي يقال له أيضاً وي الري ، فعرضت عليه الأمر أن يعطيني الألف غرش ، فوعدني أنه يعطيني إياها . وبعد شهرين قال لي : لا أقدر أعطيك . ثم إني أرسلت من هناك الشماس يونان ابن أخي إلى حلب .

---

(22) جكتريه ، أو بالحري جكدريه ، كلمة تركية معناها السفن .

(23) لا نعرف شيئاً عن هذا الشماس ونظنه درس في مدرسة البروباغندة (التبشير) .

(24) وبالأسبانية (Vey El Rey) أي نائب الملك (Vice _ Roi)

وأنا لما نظرت أن ليس لي رجاء من هذا القاسي القلب أن يعطيني الألف غرش ، بعد تعب القلب الذي حصل لي في سفرتي ، رجعت إلى نابولي لأُحصِّل الألف غرش الأخرى من الوزير الأول مثل ما كان وعدني ، فهذا أيضاً جاوبني قائلاً : ما أعطى حاكم سيسيلية الألف غرش ولا أنا أعطي شيئاً ولا عندي دراهم .

ثم إني رجعت ، مرة أخرى ، إلى إسبانية خائب الرجاء ، حتى أُرجع الأمر إلى الملكة ، فرجعتُ إلى رومية ومنها إلى ميناء ليغورنة ، وركبت في البحر ووصلت إلى مدينة برسلونة المذكورة ، ومنها جئت إلى سراكوزا ورأيت هناك أخا الملك المذكور ، فأخبرته بما جرى لي من الأتعاب والخسائر لأني صرفت أربعمائة غرش في الرواح والمجيء . فشقّ ذلك عليه ، وكان صحبتي واحد رومي من أولاد حلب يخدمني اسمه يوسف الفتال .

في البرتغال

ثم إني رجعتُ إلى مدريد وعرضتُ حالي على الملكة فصعب عليها ذلك ، بسبب عدم قبول أمرها . ثم بعد أني أرجعتُ لها أمرَها خرجت من مدريد قاصداً بلاد البرتغال . وفي ذلك الزمان كان ملكهم موجوداً في جزيرة تسمى إيزلا ترسيرا (SOLA TER-CEIRA) وذلك لعدم نسله بعد أن ثبتت معه امرأته ثلاث سنين . وأما هذه الشقية فكانت فرنساوية وزوجها الأول كان يسمى الملك دون الونصو (ALPHONSE VI) ولكن هذا زوجها الثاني ، فكان يسمى دون بيدوا ، فمع أنه جلس في مكانه لكن لم يسموه ملكاً ، لكن أميراً بسبب أن أخاه كان باقي في الحياة . وبعد أن تزوجها رزق بنتاً . ثم إني ذهبت إلى عند هذا الأمير وتكلمت معه . وبقيت في هذا البلد سبعة أشهر ، وزرت جميع كنائسها وأديرتها . وأما سكان هذه البلدة فمنهم أناس أجواد كرماء وكاثوليكيو الإيمان . وأيضاً يوجد هناك نصارى جدد وهم من ملة اليهود المتنصرين وهم معلومون عند الكلّ وما يتزوجوا من النصارى القدماء والبعض منهم ، بالحقيقة ، ناكرو دين المسيح . فلمّا يتحققون أمرهم أنهم كذلك يحكم عليهم ديوان الإيمان (ديوان التفتيش) بالحريق . وأما هذه المدينة ليزبونا (لشبونة) (LISBONNE) فهي ميناء البحر . ومنها تسافر المراكب إلى هند الشرق ، إلى بلاد كووا التي من حكم البرتكال .

الرِّحلة الأميركية

(4)
مفاجأة !

وبعد أن بقيت هناك (في البرتغال) سبعة أشهر رجعت إلى بلد مدريد المذكورة ، وسكنت في دار أمير يسمى الدوكه ده أوبرو . وصار لي من هذا الرجل ومن بقية الأصحاب إكرام زائد وإحدى السيدات تسمى ميركزا ده لوزوبلس التي ربت الملك عملت لي إكراماً عظيماً وطلبت من الملك دستوراً أن أقدِّس له فكان معي شمّاس رومي وكنت علمته يخدم قداسي . فدخلت كنيسة الملك وقدست أمامه وأمام والدته ثم بعد ذلك أمرت الملكة مربية الملك أن تسألني أي شيء أطلب حتى تهبني . فأخذت منها مهلة ورحت شاورت بعض الأصحاب فأشاروا عليّ أن أطلب إجازة وأمراً قاطعاً حتى أتوجه إلى بلاد هند الغرب[25] فصعب عليّ هذا الأمر لكن جعلت الحملة على الله واتكلت عليه وطلبت الأمر . لأنه لا يقدر غريب أن يجوز إلى بلاد الهند إن لم يكن معه أمر من الملك . وكان في ذلك الزمان النونسيو الذي هو رسول البابا في مدريد يسمى الكردينال ماريسكوتي . وهذا المبارك ساعدني بنصائح .

(25) كانوا يسمون بلاد أمركة الهند الغربية ليفرقوها عن الهند الشرقية .

ثم إني أخرجت الأمر من الملكة ، ففرح بعض الأصدقاء لهذه النعمة التي أنعمت بها عليّ . فأمّا الأمير الذي كنت نازلاً عنده في الدار فجهزني بكل ما أعتازه في السفر ، وأعطاني مكاتيب وصية إلى بعض أصدقائه ، والأمر الذي أخرجته من الملكة كان وصيتها عليّ إلى الوزير وإلى المطارنة والأساقفة والحكام في كل بلاد الهند على مساعدتي . ثم إنّي تقويت بالرب واعتصمت باسم والدته مريم العذراء وخرجت من مدريد قاصداً مدينة قادس (CADIX) التي هي ميناء على البحر المحيط . فمن بعد سفر اثني عشر يوماً في البر دخلت إليها فرأيت مراكب الهند مهيئة ومستعدة للسفر . وفي هذه الأسكلة يقام ديوان مدبري المملكة فقدمت أمر الملكة فسجلوه لي وأعطوني أمراً ثانياً بموجبه .

بدء الرحلة

ولما كان اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة ألف وستماية وخمس وسبعين من المسيح قدمت أمري مع المكاتيب إلى جنيرال الغلايين[26] دون نيقلاوس ده كوردووا . فحبني واستقبلني بكرامة عظيمة وأعطاني كأمره ، أي أوضة في مركبه ، فأدخلت حوائجي في الأوضة وقفلت الباب . وهذا الغليون هو الرئيس على سائر الغلايين . وقد أخذت معي من قادس شمّاساً من طائفة الروم مولوداً في اتينس (أثينا) ، لاني ما وجدت أحداً من ملّتي ومن أولاد بلادي . فصار عندي ندم عظيم بسبب أني كنت سرَّحت أبن أخي الشماس يونان إلى بلاد الشرق . ولكن ما عادت الندامة تفيد فنصحني البعض من الأصحاب قائلين لي إن هذا الرومي عند وصولك إلى بلاد الهند سوف يتمرَّد عليك ويخرج من عندك . فعند وصولي جرى لي كقولهم .

ثم إننا في ذلك اليوم المذكور قلعنا ونصبنا الإقلاع وسرحنا . وكان عدد الغلايين ستة عشر غليوناً . فتودعوا من الأسكلة بضرب المدافع ودقِّ الأبواق ، ونصبوا الأعلام والرايات .

---

(26) جمع غليون أي السفن (Galion).

(5)

في مركب الملك

سافرنا وكان المسافرين قوم منهم في فرح وأناس في حزن على فرقة أهاليهم . وهذه رفقة المراكب تسافر كل ثلاث سنين مرة واحدة إلى بلاد الهند التي تسمى البيروه والتي تبعد ألف وخمسمائة فرسخ داخل بلاد ينكي دنيا (المكسيك) لكي يحضروا من هناك خزنة الملك . وأيضاً التجار يوسقون الغلايين من كل أجناس البضايع ويبيعونها في تلك البلاد ، ولا يدعون إنساناً غريباً عن الجنس السبنيولي يرافقهم لا تاجراً ولا كاهناً إن لم يكن معه أمر من الملك ، مثل ما ذكرنا سابقاً . وهذه هي إلى اليوم قوانين ونواميس موضوعة من أيام كارلس الخامس من ملوك إسبانية وبلاد المجر ، حيث على عهده فتحوا بلاد الهند . وهذه الغلايين تعود بالغنايم الفضة والذهب بقيمة عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً وكل مليون قدره عشر كرات . وبعد خروجنا من قادس بثلاثة أيام حدث اضطراب عظيم في البحر ودام ذلك علينا ثلاث ساعات ، فكان برفقتنا رجل شريف يسمى دون نيقلاوس أنيفانته وكيل الملك ، فمن كثرة الخوف الذي دخل عليه مات في تلك الليلة . فربطوا برجليه جراراً مملوءة ماء وحدفوه بالبحر لكي يغطس إلى أسفل ولا يعوم على وجه الماء وتأكله الحيتان . فلما حدفوه ضربوا له ثلاثة مدافع وهذا المذكور كان ذاهباً مقدم ديوان كيتو (Quito)(27) ومن بعد ثلاثة أيام أشرفنا على جزيرة أسمها كنارياس (Canaries)(28) من حكم إسبانية ولازلنا مسافرين والأرياح تلعب بنا ، ونحن في نصف الدرب فصادفنا مركباً إنكليزياً موسوقاً من العبيد السود عددهم سبعمائة نفس ، قد جاءوا بهم من بلاد برازيل (Bresil) من حكم البورتكال حتى يبيعوهم في بعض جزائر الهند .

---

(27) عاصمة بلاد الأكواتور أو خط الاستواء .

(28) هي الجزائر الخالدات غربي إفريقية الشمالية قبال بلاد مراكش .

(6)

عند شواطئ كاراكاس

وفي اليوم الرابع[29] كشفنا على أرض من أراضي الهند ووصلنا إلى مكان، أي ناحية في البحر. فتأمل النواخذة[30] في الماء، فلما نظروا لونها متغيراً علموا أنها ماء النهر وعرفوا في أي مكان وصلوا، لأنه ينحدر من تلك الأرض نهر كبير واسع مقداره أربعين فرسخاً، ولانحداره وعزم قوته الشديدة يشق البحر ويجوز فيه نحو أربعين فرسخاً. ثم إلى هذا الحد تختلط ماؤه في البحر ولا يوجد مثله نهر في الدنيا[31]. ثم من هناك كشفنا على أرض تسمى كراكس (Caracas)[32] ومن هناك جزنا في جزيرة تسمى مركاريتا (Marguerite)[33] من حكم إسبانية. وذكروا لنا عن الجزيرة أنها من مدة عشرين سنة كان الغطاسون في هذا البحر قرب الجزيرة وكانوا يخرجون صفد (صدف) اللؤلؤ البليغ في الكبر والشريف باللّون. فذات يوم بينما كانوا يستخرجونه نذروا على أنفسهم أن أول شيء يخرجونه في ذلك النهار من اللؤلؤ يدفعونه إلى كنيسة العذراء، فلمّا نظروا أنهم أخرجوا لؤلؤاً كبيراً غالي الثمن ندموا بذاتهم، وقالوا إن غداً يكون على اسم العذراء. وأيضاً غطسوا ثاني يوم وأخرجوا اللؤلؤ فوجدوه أحسن وأبلغ من الأول. فطمعوا كذلك، وقالوا نهار غد نفي نذرنا إلى العذراء. ثم في اليوم الرابع انحدر الغطاسون كعادتهم ليخرجوا اللؤلؤ فما وجدوا شيئاً أبداً وإلى يومنا هذا ما بقوا يجدون لؤلؤاً في ذلك البحر.

---

(29) اليوم الرابع بعد التقائهم بالمركب الإنكليزي ولعله اليوم الرابع والأربعين بعد سفرهم من قادس.

(30) نواخذة كلمة فارسية مفردها ناخذاة ومعناها ملاك السفينة أو رئيسها.

(31) هو نهر الاورينوك (Orenoque) العظيم في شمالي أمركة الجنوبية، لكنه ليس بأعظم من نهر الأمزون.

(32) كاراكاس عاصمة بلاد فنيزويلا (Venezuela).

(33) مرغريتا جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل الصغيرة (Petites Antilles) تجاه كاراكاس وهي شهيرة بصيد اللؤلؤ. ولما حل المكتشفون في ضواحيها في أواخر سنة 1499 اشتروا من سكانها اللؤلؤ بالكيل مقايضين عليه بابر ودبابيس وقد سمي جوارها خليج اللؤلؤ (Las Perlas).

(7)

جزيرة السلاحف

فنرجــع إلى قولنـــا ، فمــن هناك سافرنا ووصلنا إلى ميناء يسمى كومانـــا (CUMANA)من حكم إسبانية . فمن هذا الميناء يقدرون أن يمشوا في البر إلى كل بلاد البيروه . لكن المانع هو خوفهم من الجنود الجلالية[34] ومن الجبال العالية والأنهر والأحراش والوحوش الضارية ، فلأجل ذلك يسافرون في البحر . فرسونا في ذلك الميناء واكتفينا من الفواكه والهدايا التي أهداها لنا حاكم البلد . ومن بعد يومين سافرنا من تلك الأسكلة وجزنا على جزيرة تسمى كوراصون (CURCAO) وهي من حكم الأولنديز (الهولنديين) ثم إن حاكم هذه الجزيرة أيضاً أرسل لنا شختوراً (زورقاً) ملآن فواكه وبوزه (جعة) لأجل المشروب ، وضرب لنا من القلعة سبعة مدافع ونحن أيضاً رددنا عليهم السلام بسبعة مدافع . ومن هناك سِرنا وجزنا على جزيرة تسمى ترتوكا (TORINGA) وهذه الجزيرة غير مسكونة لأن فيها زلاحف كبيرة أزيد من ذراعين طولاً وعرضاً . والمراكب تروح وتتصيد من هذه الزلاحف وتملحها لأجل زوادة[35] . وفي هذه الجزيرة وجدنا مركباً صغيراً فرنساوياً ، وكان في ذلك الزمان حرب بين إسبانيا وفرنسة ، ونحن كنا سبعة عشر غليوناً . ولما رأى الفرنساوية أننا أحطنا بهم هربوا للبر في الجزيرة وتركوا المركب فارغاً ، فأخذتْ مركبنا المركبَ فرأيناه موسوقاً زلاحف مملحة . وأما الناس الذين هربوا وخلّوا المركب ، كان لهم مركب آخر في جانب آخر من الجزيرة نحو تسعة أميال ، فراحوا واجتمعوا بذلك المركب . فمن بعد شهرين حصّنوا لهم مركباً بعدة من الرجال والآلات الحربية لينتقموا من أعدائهم .

---

(34) الجلالية لعلها كلمة (Guerillas) ومعناها العصابات التي تقاتل قتالاً غير قانوني .

(35) سميت هكذا لوفرة الزلاحف التي كانت تغطي أرضها عندما بلغها المكتشفون سنة 1503 .

(8)
قرطاجنة الجديدة

ومن هناك سافرنا إلى بلدة تسمى كرتاخينا (قرطجنة الجديدة CAR-TAGENE)[36] وكان السفر الذي سافرناه سعيداً لأننا بخمسة وخمسين يوماً دخلنا إلى هذه الأسكلة حيث ترسي الغلايين وكان وصولنا إلى هذه البلدة يوم مبارك وهو يوم خميس الفصح المقدّس . ثم خرجنا ثاني يوم للبر نهار جمعة الآلام واسترحنا من أتعابنا . وأيضا تشرَّفنا بالزياحات المقامة يومئذ لآلام المسيح . وفي هذه البلدة قوم أكابر أغنياء جداً ، وديوان من ديوانات الملك ، وكنائس وقسوس وديورة رهبان وراهبات . وسكان هذه البلدة كاثوليكيون محبو الغرباء ، وهم إسبنيوليون حقيقيون . وكان حاكم هذه البلدة رفيقنا في المراكب ، وقد عمل لي عزاً عظيماً وإكراماً جزيلاً ، فرسونا في هذه البلدة أربعين يوماً حتى جاءت المكاتيب مع الأولاق[37] من بلدة ليما التي هي تخت لوزير الملك وللتجار الأغنياء الذين من البيروه ، فخرجنا من هذه الأسكلة وسافرنا إلى أسكلة تسمى بورتوبلو[38] وفي هذه الأسكلة يصير البيع

(36) قرطجنة بلدة عظيمة بسكانها وتجارتها لأنها تعتبر مرفأ أمركة الجنوبية إليها تأتي السفن التجارية ومنها تقلع محملة كنوزاً وبضائع . وقد كانت عندئذ سوقاً عاماً للرق يأتي النخاسون بالعبيد المساكين من الكونغو والغويان وغيرهما من بلاد أفريقية فيبيعونهم بيع المواشي ، ولذلك سعى المرسلون أن يخففوا آلام العبيد ويفكوا قيودهم ما استطاعوا وينيروا عقولهم بنور الإنجيل ليكون صليب المسيح عزاءً لهم ورجاءً في حالتهم التعيسة . وقد اشتهر بين ذوي الغيرة المسيحية على هؤلاء المنكودي الحظ القديس العظيم بطرس كلافر اليسوعي الذي قضى نحواً من نصف قرن بخدمة العبيد في قرطجنة فكان لهم أباً حنوناً اكتسب منهم إلى المسيح عدداً لا يحصى ، وقد عمَّد بيده ثلاثمائة ألف ونيف ومات سنة 1654 .

(37) أولاق كلمة تركية معناها السعاة .

(38) بورتو بلو وقد كتبها سائحنا مرارا بورتو ويلو على اللفظ السبنيولي (Porto Belo) وتسمى أيضا (St. Philippe de Porto Belo) بلدة صغيرة على برزخ باناما بالقرب من نهر (Charge) وهناك ترعة باناما لتمر السفن من بحر إلى بحر .

والشراء لما يرجع تجار البيروه من البحر القبلي . فبقينا نستناهم نحو شهرين حتى وصلوا إلى عندنا ، وأحضروا معهم من الفضة والذهب خمسة وعشرين لكاً[39] وصار البيع والشراء بين التجار والهنود وبين التجار السبنيولية أربعين يوماً . ففي ذلك الحين جاء المركب الفرنساوي السابق ذكره وقنصر[40] . وفي ليلة من الليالي طف على الشختورات الأسبنيولية ، وأخذ المال الذي كان فيها ، وكانت عدة المال مايتي ألف غرش . فالصبح لما سمع أصحاب مراكب الحرب خرجوا وراءهم فما صادفوهم ، فراحت على من راحت وراح الصيادون الفرنساوية المذكورون وهم يزمرون ويدقون بالدفوف . ويوجد في هذه الأسكلة التي تسمى بورتوبلو شيء من جنس الدبابات أصغر من البرغوث ، وسمِّي في اللسان الهندي بنكثوا . فهذه الدبيبة إذا تغافل عنها الإنسان تجوز في جسده ، ومن بعد أربعة أو خمسة أيام تكبر وتصير قدر الحمصة فيلتزمون أن يكشفوا بصنعة ويخرجوها بإبرة من غير أن يفقؤوها ، ويحطونها (يضعونها) على بصة (جمرة) نار فتطق مثل الفرقوعة . وإذا ما أخرجوها بصنعة وفقؤوها فتقع ميتة على لحم الإنسان ، فيتورم ويفقع ويموت ذلك الإنسان[41] وأيضاً في ذلك البلد يحصل خفاش الليل كبير يجي إلى الإنسان وهو نايم ويبدأ يفصده ويمصُّ دمه ويستفرغه ، وبجناحه يهوي على ذلك الإنسان ليطيب له النوم . ولا يزال يفصد ويتقيأ الدم إلى أن يفيق الإنسان نصف غشيان من كثرة الدم الذي خرج منه[42] .

---

(39) إلك ، كناية عن عشرة ملايين .

(40) قنصر هي كلمة (ancrer) أي أرسى وردت في رسائل بعض معاصري السائح .

(41) نظنه يريد الدبيبة المعروفة عند علماء الطبيعيات باسم (Sarcopsylla Penetrans) فإن وصفها عندهم يطابق ما جاء به الكاتب (اطلب Dr. Moniez P612) (Traite de Parasitologie du) وقد وصف دون دولوا (Dom d'Ulloa) مرضاً جلدياً شبيهاً سماه الحية الصغيرة (Culebrilla) يصيب سكان باناما قال أنه دملة تداوى بالشق بإخراج الجلد البالي فتيلاً يشابه الحية ، وزاد أن سكان قرطجنة وبورتو بلو يذهبون أنه بالحقيقة حية أو دبيبة صغيرة . وقد ثبت الآن أنه دبيبة تعرف باسم . (Filaria Medinensis) (ibid P 319)

وقاسينا في تلك البلدة من الحر والمطر مدة أربعين يوماً والتّجار يبيعون بضائعهم . فلمّا أدخلوا خزينة الملك إلى هذه الأسكلة أرسلني الجنرال حتى أتفرج عليها ، فرأيت شيئاً لا يحصى من الفضة والذهب .

(9)
خزنة الملك

ومن بعد ذلك قصدت أن أركب سفينة وأتوجه إلى بلاد صانتافه[43] التي يخرجون منها هناك حجارة الزمرد ، لأن من بلد كرتاخينا (قرطجنة CARTAGENE) يسافرون في النهر وهم صاعدون إلى هذه الأرض المذكورة معادن الزمرد ولكن جنرال الغلايين نصحني ومنعني عن ذلك قائلاً إنّ في تلك الأرض يوجد بعض حيات مسمومة تقتل الناس ، وأيضاً المسافة بعيدة ، فأنا أشور عليك بالمحبة الإلهية أن لا تروح وتضيع وتموت في تلك البلاد . ثم إني طاوعت شوره (نصيحته) وقصرت عن الرواح . ثم من بعد أربعين يوماً طلعنا من بلد كرتاخينا وسافرنا صحبة الغلايين . ومن بعد عشرين يوماً وصلنا إلى ميناء يسمى سان فيلبه ده بورتو بلو فلمّا وصلنا إلى هناك ورسونا في هذا الميناء مستنظرين المراكب التي تجيء من بلاد البيروه في البحر القبلي الذي يسمى مارسوريجوا إلى أسكلة تسمى باناما وفيها حاكم رئيس عسكر وأسقف وديورة رهبان وراهبات . وهذه البلدة لطيفة جداً . ومن هذه الأسكلة المذكورة إلى أسكلة بورتو بلو ثمانية عشر فرسخاً في جبال وحرش ما بين البحرين بحر القبله وبحر الشمال ، وهذه الأرض دروبها صعبة نذكرها فيما بعد . فنزّلوا خزينة الملك محملة على بغال إلى بورتو بلو ، وأيضا أحمال التجار ، والمسافة دون ثلاثة أيام ، ويأخذون الكروة ثلاثين غرشاً على كل بغل ، ويصير موسم

---

(42) هو وصف الخفاش المسمى Vampire .

(43) صانتافه Santa Fe de Bogota عاصمة بلاد غرناطة الجديدة ، وهي الآن عاصمة كولمبية ، والنهر المذكور هو نهر (Magdalena).

التجار أربعين يوماً ويتسوقون البضائع التي مع الغلايين فخزنة الملك كان عددها خمسة وعشرين مليوناً وكل مليون عشر كرات وكل كرة ماية ألف غرش . فأما هذه الخزنة ما تجيء كلها إلى إسبانية بل يقسمونها علايف[44] على أرباب الوظايف وإلى الجنود الحارسين الجزائر والقلاع الكائنة في بلاد الهند المنسوبة إلى بلاد البيروه . ومن هذه الخزينة يصرفون أيضاً على الغلايين المنسوبة إلى الملك وعلى جنودهم . وهذا الميناء هو أرض حامية جداً وكثيرة الأمراض . ففي تلك السنة ما صار مرض عظيم . ولكن مات من الطرفين مقدار ألف نفس والباقي مرضوا وأنا مرضت ، لكن الرب شفاني بواسطة ملكة القديسين مريم العذراء ومار إلياس الحي . ثم من بعد ذلك باع تجار إسبانية بضائعهم إلى تجار البيروه وتسلموا الفضة والذهب . فرجع تجار البيروه إلى سبيلهم ، والغلايين أخذوا الفضة والذهب وبعضاً من البضائع مثل صوف التفتيك يسموه بيكونيا[45] وأيضاً كاكاو الذي يشبه القهوة بالرائحة والطعم لكن زايد الدسم[46] فيخرجون من هذه الأسكلة راجعين إلى كرتاخينا ومن كرتاخينا إلى جزيرة لاوانا[47] وهي جزيرة حصينة وفيما بعد نذكرها .

(10)

النبات القاتل !

فأما أنا الحقير قصدت مرافقة هؤلاء التجار للبيروه ، فاستكريت ثلاثة بغال بتسعين غرشاً ، فأما الحاكم ما أراد يخليني أن أروح وحدي لسبب الجبال التي يوجد

(44) علائف ، بمعنى رواتب وأجور .

(45) صوف التفتيك (بيكونيا) لعله يريد النبات المعروف باسم بينيونيا أو بيكونيا ، وهو أنواع ومنه نوع قطني .

(46) سيأتي وصفه .

(47) يريد مدينة لاهافانا (La Havana) عاصمة كوبا (Cuba).

فيها نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع . فلمّا يمر عليه رجل أبيض عابر الطريق يرتفع من الأرض مثل عود السهام ويدقر (يمس) الإنسان . ولا يشفى المصاب بهذه الدقرة إلى الموت ، لكنه لا يدقر الهنود العبيد ولا يضرهم . فلما حكى لي الحاكم بهذا الشيء قلت له لا أصدق إن لم أر بعيني فقام أرسل معي خادمه وهو أحمر حتى يريني ذلك الحشيش . جاء الخادم إلى جانب فرسي واختفى ، فما رأيت هذا الحشيش وهو بعيد عشرة أذرع عن الدرب ، إلا وارتفع وامتد أن يجيء يلدغني ، فخرج الأحمر صاح عليه دونك يا كلب ، فلمّا صاح عليه وقع على الأرض ، وأنا شاهدت ذلك بعيني[48] .

الزهرة الغريبة

وأيضا في هذا الجبل رأيت أغصاناً ساوية معدلة من غير ورق ، وفي كل غصن ثلاث جوزات مثل القطن ، فإذا انفتح جانب الجوزة رأيت داخلها حمامة بيضاء بجناحها ورجليها ، ومنقارها أحمر وعيونها سود فهذه يسمونها زهرة الروح القدس . وكثير من حكام السبنيولية أرادوا أن يحضروا منها ويزرعوها في إسبانية فما قدروا[49] . فمن بعد خرجنا من بورتو بلو عبرنا في نهر صغي قليل الماء ، لكن محجر فمشينا فيه ثلاث ساعات[50] . ومن بعد ذلك صعدنا إلى رأس جبل لنرقد تلك الليلة . وهذا المنزل يسمى بوركارفون . وثاني يوم سافرنا ورقدنا في منزل آخر يسمى

---

(48) نستغرب هذا الوصف فقد طالعنا رحلات معاصريه ، ونقرنا في كتب العلم فلم نر إثباتا لما ادعى صاحبنا أنه رآه مرأى العين ، وقد يكون هناك خزعبلة أراد بها الحاكم أن يمنع سائحنا عن السفر ، اللهم إن لم نأول كلامه فنعزوه إلى وصف الثمرة المعروفة باسم (Hura crepitans) التي إذا ما نضجت تفرقعت بدوي كدوي إطلاق بارودة .

(49) لعلها الزهرة المسماة (Polygala) مع المبالغة في وصفها .

(50) هو نهر شاغر (Chagre).

جاكري . ومن ذلك المنزل دخلنا إلى البلدة التي تسمى باناما الجديدة ، لأن من سابق عام كانت قد احترقت باناما القديمة(51) ولما وصلت إلى البلد رأيت كل البيوت معمّرة من خشب . وثاني يوم نزلت عند أسقف هذه البلدة ورأيته رجلاً قديساً ، فصار لي معه صداقة عظيمة حتى تخاوينا مع بعضنا البعض ، فهو أعطاني خاتمه وأنا أيضاً أعطيته خاتمي . وهذا الأسقف النبيل كان اسمه دون أنطونيو ده ليون وأعطاني عكازته الصغيرة التي كان يمسكها في يده . وبقيت في هذه البلدة مقدار شهر .

(11)
مغارة الجبابرة

ثم ركبت في مركب وسافرنا في بحر القبلة الذي يسمى البحر الأزرق قاصدين بلاد البيروه ، وكان قبال هذه الأسكلة باناما جزيرة صغيرة مسكونة تسمى تابوكا (TABOGA) قريبة من الأسكلة المذكورة ثلاثة فراسخ ، ففي الحين صادفت برفقتنا في المركب رجلاً خيِّراً يدعى قبطان فرنسيسكو من بلد طروخيليو . فلمّا وصلنا إلى هذه الجزيرة وكان دخل من الليل ساعتين . قال لي القبطان بأن نمضي ونرقد في البر ، لأن حاكم الجزيرة هو صهري ، فطاوعته ونزلنا على كلك (سطح خشبي) صغير حتى نطلع للبر ، وهذا الكلك هو خمس خشبات فلما اقتربنا من المركب قاصدين الأرض ، انقلب الكلك والوقت ليل وعتمة . فأنا لما نظرت روحي في الماء ، فخبطت وتعلقت بالكلك بتكلك العكازة التي كان أعطاني إياها الأسقف . وهكذا أعاننا الرب ووالدته مريم العذراء حتى إننا خرجنا ثلاثة أنفار إلى الأرض بغير ضرر البتة ، وسكنّا هنا ثلاثة أيام إلى أن حمل مركبنا ماءً للشرب . ثم بعد الأيام المذكورة سافرنا في البحر والأرض كانت قريبة من شمالنا . وأيضاً يوجد في هذا البحر في دربنا مكان يسمى كوركونا (GORGONE) يعني دوار البحر فإذا وقع مركب هناك يبقى خروجه أمراً

(51) أغار القراصنة الإنكليز بقيادة زعيمهم مورغان (Morgan) سنة 1870 على باناما فنهبوها وأحرقوها فأعاد الإسبانيون إعمارها قبل وصول سائحنا بمدة قصيرة .

عسيراً إلى وقت ما تأتيه ريح عاصفة تخرجه من هناك ، وإلا يهلك أناسه من الجوع . وهذا البحر السفر فيه مخاطرة بسبب شدة أمواجه ، يسمى البحر العجاج المتلاطم بالأمواج ، لأن العابر فيه مفقود والخارج منه مولود ، فلولا عناية الله الذي أعاننا حتى إننا خلصنا من شر أمواجه ، فبقينا على وجه الماء مقدار شهر ، إلى أن سهّل لنا الباري عزّ وجلّ اسمه فوصلنا إلى مينا يسمى سانتا ايلينا (HELENE) يعني قديسة هيلانة . ثم رسونا هناك وكان في رفقتي ثلاثة رجال كرماء رايحين ليحكموا كل واحد في منصبه . فبعد أن حصلنا في الأرض وبقينا خمسة أيام في خوف من شر البحر ، قصدنا أن نمشي في البر ولو صار لنا تعب عظيم لبعد الدرب .

حيتان البحر

حينئذ أخبروني في هذا الميناء عن رجل من الهنود عمرهماية وخمسون سنة فقصدت أن أروح أزوره فنظرته صحيح الجسم عتيق الأيام ، فابتدى يحكي لنا عن الأيام السالفة وذكر لنا قائلاً أنّ بالقرب من هذا الميناء بفرسخ واحد يوجد مغارة كبيرة وهناك مدفونون أناس من الجبابرة ، وأيضاً أخبرني بأن والده كان حكى له أنّه لمّا وصلت مراكب السبنيولية إلى تلك البلاد واكتسبوها ، كان الهنود يظنون أن المراكب هي حيتان البحر ، وقلاع المراكب كانوا يظنونها جناح الحيتان ، لأن إلى ذلك الحين ما كانوا رأوا مركباً . ولما كانوا ينظرون إلى الخيل وراكبيها كانوا يظنون أن الفرس وراكبها شقفة (قطعة) واحدة . ثم إني لمّا سمعت عن الذي جرى في تلك البلاد ، وعن الجبابرة المدفونين هناك ، صار لي رغبة أن أنظر ذلك عياناً ، فأخذت معي رفقاء من الهنود اثني عشر نفراً مستعدين بالسلاح ورحنا قاصدين تلك المغارة لننظر الذي سمعناه . فعند وصولنا إليها أشعلنا الشمع الذي كان معنا لخوفنا أن نضيع داخل المغارة ، فعبرنا والشمع بيدنا وفي كل عشر خطوات أوقفنا رجلا في يده الضوء حتى لا نضيع درب الباب ، وأنا تقدمتهم وسيفي مسلول في يدي . ثم إني وصلت حيث موضوعة العظام فنظرتها ثخينة ، وأما الجماجم فهي كبيرة جداً ، فقمت قلعت من إحدى الجماجم سناً أي ضرساً كان هذا قد كبره (يكتب كمن يروي لحضور) حتى إنه كان يزن مائة مثقال لثقله . وأيضاً تأملت في عظم الساق وقست أحدها فكان

طوله خمسة أشبار . ففي بعض البلاد عمل أحد المصورين قياساً وتخميناً لهذا الجسم ، فوجد ارتفاعه خمسة وعشرين شبراً . ثم خرجنا من المغادرة متعجبين جداً مما نظرنا ، وأنا أخذت معي الضرس المذكور[52] .

(12)
وصف التمساح المعروف باسم قيمان (CAIMAN)

ومن هناك توجهنا إلى الميناء واستكرينا خيلاً وخرجنا مع الهنود قاصدين كورة وأياكيل (GUAYAQUIL) وهي أيضاً ميناء البحر الأزرق ، وهي درب أربعة أيام . والدرب حرش وأشجار وبعض أنهر صغار ويوجد فيها حيوان كمثل التنين يسمى قيمان كالتمساح ، وفمه واسع وطويل مقدار خمسة أشبار ، وطول جسده خمسة أذرع . هذا إذا صادف إنساناً يبتلعه في الحياة ، ولكن الإنسان الميت لا يأكله ، فيخرج من الماء ويطوف قرب النهر ، فإذا وجد إنساناً أو حيواناً بالحياة يبتلعه ، ويركض على يديه ورجليه كمثل يدي السباع . فإذا جاء فرس أو ثور يشرب ماء من النهر فيطف (ينقضّ) عليه ويسحبه من مناخيره ويوديه ، فيجتمع عليه البعض من هؤلاء الحيوانات ويقطعوه ويأكلوه . فإذا أراد الكلاب أن يشربوا ماءً ينبحون ، أولاً ، على حفة النهر ، فيسمع هذا الحيوان صوتهم فيخرج ليبتلعهم . فعند ذلك يرجع الكلاب هاربين وراكضين إلى مكان آخر ليشربوا الماء ، لعلمهم أن القيمان هو في المكان الذي نبحوا . هكذا يتحايل الكلاب على القيمان . وأما الحيلة التي يصطاد بها الهنود هذا الحيوان فالأولى هي أنهم يأخذون عوداً قدره نصف ذراع ورأسا العود منحوتان نحتاً رفيعاً

---

(52) ذكر مراراً السائحون في بيرو عظام الجبابرة . قال كوريال من معاصري رحالتنا في سفرته إلى ضواحي غوايا كيل : «وقد ذكر لنا الهنود أن قوماً من الجبابرة كانوا يسكنون أرضهم فنزل شاب من السماء وأبادهم بالنار ، وقد لجأ بعضهم إلى المغاور والكهوف فماتوا فيها حريقاً» وذكر غيره أنه قاس سناً فكان عرضها ثلاث أصابع وطولها أربع أصابع . وهذا يثبت كلام سائحنا . لكنها عظام بعض الحيوانات القديمة لا عظام بشرية .

ويربطون في نصف العود حبلاً متيناً . وهذا العود يشوونه ويصقلونه مثل السيف ، حتى يبقى صلباً مثل الفولاذ ، ثم يروح أحد الهنود ويجلس كامناً على جانب النهر ، فلما يخرج هذا الحيوان وينظر الهندي فيقصد ابتلاعه ويفتح فاه ليبتلعه ، حينئذ يدفع الهندي ذلك العود المنحوت في فم الحيوان وهو ماسكه بيده فلما يقصد أن يطبق فاه ينغرس في فمه من الطرفين ، وكلما يعض عليه ينغرس في لحمه ، ثم يسحبونه بعزم شديد إلى الأرض ويجاهدون أن يقلبوه على ظهره ليمنعوه عن المشي ، حينئذ يقطعونه شقفاً (قطعاً) . وأما الحيلة الثانية التي يصطادونه بها فهي أن أحد الهنود ينزل في النهر وفي يده حبل ، ويغطس تحت الماء ويصل إلى هذا القيمان وهو طايف على وجه الماء ويرمي خربوته (كرة) الحبل على نصف ظهره ، وهو تحت بطنه يحكحك له وهو لاط إلى (أن) يرتبط بالحبل من نصفه ، ثم الهندي يسبح هارباً منه ، لأن هذا الحيوان لا يقدر أن يفترس شيئاً تحت الماء لكن خارج الماء ، فإذا خرج الهندي من النهر حينئذ يجتمع الرجال ويسحبون هذا الحيوان المربوط إلى خارج الماء ويقتلونه . وأنا نظرت بعيني لما اصطادوا اثنين منهم بسبب أنّ واحداً من الحيوانات كان قد ابتلع صبياً من رفاقنا ونحن راكبون في الكلك . وهذا الصبي كان خادم خوري هذه الكورة . فصعب على الخوري وأمر أن يجتمع الهنود لصيد هذا الحيوان فاصطادوا اثنين منها فشقوا بطونها فوجدوا شقف جسد الصبي المذكور فأخرجوها وأخذها الخوري فدفنها . وهؤلاء الحيوانات كثيرة العدد وفي بعض الأوقات يخرجون من النهر ويضطجعون بجانبه على الأرض وفمهم مفتوح إلى الهواء فيأتي عصفور صغير ويدخل في فمه ويبدأ ينقر من وسخ أسنانه فيشبع العصفور ويرجع طايراً ، والحيوان يطيب له بتنظيف أسنانه .

(13)
القصب الشاهق

ثم وصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة غواياكيل المذكورة . وهذه البلدة مسكونة من الهند والأسبنيول ، وصار لنا من أناس هذه البلد إكرام زايد ، ولاسيما من رهبان مار

عبد الأحد . وبعد أن مكثنا هناك عشرة أيام خرجنا قاصدين قرية تسمى بابا (BABA) مسكونة من الهنود والسبنيولية ، وهي أرض سخنة ويوجد هناك بساتين فيها جنس أشجار كأشجار التوت تحمل ثمرة تسمى كاكاو (CACAO) يعملون منها الجيكولاتا (CHOCOLAT) وهذا الثمر تراه مثل البطيخ متعلقاً وملتصقاً على جسم الشجرة . فلما يبلغ ويَصْفَرُّ يأخذونه ويقطعونه ففي داخله يخرج الثمر وهو حبوب أخشن من الفستق ، ثم ييبسونه حتى ينشف ، وبعد ذلك يقلونه فتراه كالقهوة في اللون والطعمة والريحة لكن كثير الدهن ، ومن دسامته يصير مثل العجين ويضيفون إليه من السكر على قدر الحاجة ، وكذلك أيضاً من القرفة والعنبر خام ، ويجلبونه عجيناً ويجعلونه أقراصاً وينشفونه بالفيء . ومن هذه الأقراص يغلون الجيكولاتا ويشربونها مثل القهوة . وهذا الثمر هو سالك عند الكلّ في جميع بلاد النصارى ، يأتون به من هناك ويبيعونه .

ثم خرجنا من هذه القرية قاصدين بلدة تسمى كيتو ، فسرنا وجزنا على قرية أخرى تسمى بوتيكاس دي سان أنطوان يوجد بهذا الدرب جنس قصب ارتفاعه أربعون ذراعاً ، وثخن القَصَبة أغلظ من مطواية نول الحيك ، ومن عقدة إلى عقدة ذراع . فهذا القصب يجعلونه صواري ، أعني غطاء لسقف البيوت ، والبعض منه ممتلئ ماء أبيض وحلو ، وأنا شربت منه . ثم إني أمرت المكاري أن يقطع منهم ست عقد تكون مملوءة ويحملها على بغل(53) . وأيضاً يوجد في هذا الدرب أجناس وحوش كمثل السعدان والميمون ألوان وأشكال . وأيضاً من قسم الطيور يوجد الضرَّة التي تتكلم ، وطير آخر يسمى باكامايا وهو بقدر ديك كبير ، لكن ريشه ملون شيء عجيب . ثم جزنا على قرية تسمى كونلبو . ومن بعد أربعة فراسخ عدينا على قرية تسمى أنبات وأيضاً يوجد في هذا الدرب جبال محاطة بالثلج . ومن رأس أحد هذه الجبال يخرج نار بولكان(54) (بركان) . ففي أحد السنين خرج من هذا الجبل نار كثيرة كرعد عظيم ، وصار دخان زايد ورماد حتى غطى الجو ، وما بقي تبان (لم تعد

---

(53) ذكر دولوا (d'Ulloa) هذا القصب في سفره من غواياكيل إلى كيتو ووصفه موافق لما قال الكاتب .

(54) هي جبال (Catoqaxi) و (Cargairaso)وفيها قمم بركانية .

ترى) السماء ولا الشمس مقدار ساعتين . ومن بعد ذلك انحدر هذا الغيم وحَرْق كل شيء وجد من الحشائش على وجه الأرض وعكر الأنهر ، ومن هذا الشيء صار طاعون في جميع جنس الحيوان لعدم قوتهم . ثم إننا وصلنا إلى قرية تسمى نشبت ، ومنها رحنا إلى قرية أخرى تسمى لاتاكونكا (LA TACUNGA) وفيها دير راهبات من طائفة الكرمليانيين قد بناه رجل صالح وهو أسقف بلد كيتو . وصرف على عمارته وإقامته مايتين وخمسة وعشرين ألف غرش . وهذا الأسقف يسمى دون الونصو بينيامونته نيسكره . وبهذه القرية جاء إلى ملاقاتي أربعة رهبان من رهبنة مار عبد الأحد أرسلهم رئيسهم ، فأخذوني إلى بلد كيتو (QUITO) وأنزلوني في ديرهم لأن رئيسهم كان سمع أن معي أمر تثبيت هذا الرئيس من جنرالهم الذي في رومية .

(14)
مدينة الذهب

ثمّ إني استقررت في دير رهبان مار عبد الأحد مقدار ساعتين ، فسمع حاكم هذا البلد عن قدومي ونزولي في الدير ، فخلى سرايته وجاء سريعاً زارني وهو مغتاظ وعاتبني على ذلك . فقلت له : «تعلم يا حبيبي أن الرهبان خرجوا لملاقاتي قناقين[55] وأتوا بي إلى ديرهم . قل للرئيس وخذني إلى سرايتك» . فما رضي الرئيس أن أطلع من الدير لكن تشارطوا مع بعضهم وفرضوا أن أكون طول النهار مع الحاكم وأتغدى معه ، وفي الليل مع الرئيس وأرقد في قلايتي أنا وخادمي . لأن هذا الحاكم المبارك كان رفيقاً معي من إسبانية وجئنا جملة في مركب واحد ، وكلما كانوا يضيفوني في المركب من الطعام المفتخر كنت أوجِّبه وصرنا أصحاباً بالصدق وهذه البلدة حيث يسكن الأسقف هي غنية بالأموال ومزخرفة بالكنائس والديورة . والأسقف المذكور كان غنياً جداً ، لكن عديم الكرم بخيلاً في العطاء . وأما الماء الذي يشربونه في هذه البلدة فهو عاطل . فتجد أكثر الناس يصير لهم مثل غدة كبيرة نازلة

(55) قناق (قونق) كلمة تركية معناها نزل السفر أو المرحلة بعد قطع السفر .

تحت حلوقهم . ويسكن في هذه البلدة هنود وأيضاً سبنيول ، فبقيت فيها شهرين . وأما ذلك الضرس المذكور الذي كنت أخرجته من عظام الجبابرة الذين بمغارة سانتا ايلينا فكان لرجل من أصحابي بنت في دير الراهبات فجاء تدخل علي حتى يريه لبنته ، فأنا طاوعته كصاحب وسلّمته الضرس ، فلما رأته الراهبات فمن يدٍ واحدة إلى يد أخرى مضيعوه (أخفوه) وما عدت وجدته ، ورمى أسقف البلد حرماً حتى يظهروه فما صار ذلك ممكناً . وكانت في هذا الدير راهبة في مرض نزيف الدم ثماني سنين ، فلما أضافني الأسقف عنده طلب مني ما هي منفعة الماء الذي يخرج من ذلك القصب المذكور أعلاه فقلت ، له : أنا قرأت في بعض الكتب وفهمت أن ماء القصب نافع للذين بهم نزيف الدم ، فطلب مني أن أهدي هذه الراهبة من ماء القصب فأهديتها وشربت منه سبعة أيام فبرئت من علتها . وأيضاً رأيتهم يصنعون في هذا البلد جوخاً مثل جوخ اللوندرا [56] (لندن) . وأيضاً حكوا لنا عن جبل عندهم أن منه خرجت من مدة سنين نار كمثل الرعد وأصعدت هذه النار بعزم قوتها حجارة محرقة وحَذَفَتْها (رمتها) بعيداً عن الجبل مقدار أربعين فرسخاً[57] .

أعجوبة !

وذكروا لنا ، أيضاً ، أن من سنين ، بينما كان أحد الهنود يفلح الأرض ، وجد أيقونة مريم العذراء مطمورة في الأرض وهي عجيبة جداً في الرؤيا . فأخذها إلى بيته وأخفاها في صندوق له . فلما جاء ثاني يوم إلى الحقل ليفلح وجدها في الحقل فأعادها ثاني مرة إلى بيته . فثالث يوم جاء أيضاً ليفلح فوجدها هناك . ففعل كذلك عدة مرات وما أمكنه أن يضبطها في بيته . ثم إنه أعلم بذلك أسقف البلد فخرج

---

(56) هو الجوخ العادي المصنوع أولاً في لندن ، ثم في جنبي فرنسة . وقد اشتهرت في القرن السابع عشر والثامن عشر معامل اللنغدوق (LanguedoC) في فرنسة ، التي كانت توفد إلى الأساكل الشرقية في كل سنة نحواً من خمسة عشر ألف قطعة أو ثوباً ثمن القطعة أو الثوب مايتا فرنك . اطلب Histoire du Commerce Francais dans le Levant XVLL Siecle par Paul Masson .

(57) هو جبل بيشنشا (Pichincha) وقد انفجر انفجارا مهولاً سنة 1660 فأحرق كل الضواحي .

حينئذ الأسقف واستقبلها بإكرام ، وأخذها بزياح إلى مكان قريب من البلد ، وبنى لها كنيسة شريفة وأسكنها هناك ، وتسمى كنيسة مريم العذراء جكيكواه على اسم تلك الضيعة ، ويقصدونها من كل النواحي للزيارة . ولّما يحدث في هذه البلدة طاعون يأخذون هذه الصورة ويخرجون بالزياح إلى بلد كيتو ، فتبقى عندهم تسعة أيام بكل إكرام ووقار ، وبواسطة هذه الشفعية ينقطع الطاعون عن البلد . ثم يرجعونها أيضاً بزياح إلى كنيستها في الضيعة المذكورة .

وأيضاً ذكروا لنا أن خارجاً عن هذه البلدة درب أربعة وعشرين فرسخاً نهر يخرج من تلك الجبال ، وعندما يزيد يرمي على الأرض من قلب الجبل رملاً مخلوطاً بذهب . فهناك أناس يعرفون الزمن الذي ينقص فيه النهر ، فيذهبون ويغربلون النهر ويعزلونه من الذهب ، فأنا نويت أن أبصره بعيني ، فأشار عليّ أناس أن لا أروح لأن السلوك في هذا الدرب صعب جداً ، لأجل ذلك قصرت المسير إليه ، لكني اشتريت من ذلك الذهب في بلد كيتو .

ثم إني بعدما بقيت في هذه البلدة شهرين خرجت قاصداً قرية تسمى أوطاوالو وفوق هذه القرية خيط يسمى في حكم الأفلاك باللسان الفرنجي لينيا (Linea)[٥٨] وتجد سكان هذه القرية عديمي اللون مورّمي البطون ، وذكروا أن في بعض الأيام تسقط من الجو طيور ميتة . وهناك ما يوجد فيء غير ظلٍّ ، الأشجار والشمس دائمة لا تغيب . وأيضاً ذكروا أن لنا خارج هذه البلدة كيتو بمقدار خمسة وعشرين فرسخاً يوجد هنود من الكفرة وهناك يروح قسوس يكرزون بإيمان المسيح فأحضروا معهم من تلك الأراضي زهر أشجار القرفة ، ولكن ما يوجد أناس يفهمون تربية هذا الدارصين وإصلاحه مثل الدارصين الذي يجيء من هند الشرق ، لأنه حادٌّ يحرق ، والهنود لا يريدون أن يكتشف عليه السبنيول حتى لا يأخذوا بلادهم . وأيضاً ذكروا لنا أنه يوجد هناك جوز الطيب والهنود يجمعونه ، وهو أخضر مثل الزيتون الكبير ويرسلونه إلى كراكس (Caracas) وهناك يبيعونه للإنكليز والأولنديز ولا (أو) للسبنيولية . وأيضاً في تلك الكورة دائماً صواعق وأمطار شديدة .

---

(58) معنى لينيا الخط يريد به خط الاستواء .

(15)

من كيتو إلى كوانكا
وصف عيد الثور

ومـــن هنـــاك رجعـــت إلى بلـــد كيتو ومنها خرجت قاصداً قرية لاتاكونكا (La Ta Cunga) ومن هناك إلى قرية إنبات (Hambato) التي تبعد عشرة فراسخ من كيتو . ومنها إلى بلد تسمى ريوبامبا (Riobamba) وهذه بلدة جميلة العمائر ولطيفة الكنائس وأناسها أغنياء وأشراف فنزلت في دير مار عبد الأحد وقبلوني بفرح عظيم مع زائد الإكرام . وقدست هناك . وعوائد قداس هذه الرهبنة تشاكل لبعض عوائد قداسنا فلهذا السبب انشرح خاطرهم عند استماع قداسي[59] وأنا بعد ذلك بقيت هناك ثمانية أيام . ثم خرجت قاصداً بلدة تسمى كونكـــا (Cuenca) فبعد سبعة أيام وصلنا إليها وكان دربنا جبالاً وثلوجاً وتسمى هذه الجبال بارامو (Paramo) لشدة البرد الذي هناك . ففي هذا الدرب يوجد نهر منحدر من الجبال التي يسكنها الهنود الكفرة ، فذكروا لنا أن من مدة سنين كان أولئك الهنود قد عملوا لهم خمسة سنابك صغار وركبوا فيها وانحدروا إلى أن وصلوا إلى الدرب الذي يمر به التجار السبنيولية ، فبينما كانوا ذات يوم مجتازين من هناك ومحملين قفلاً من البضائع خرج عليهم الهنود المذكورون فترك أناس القفل أحمالهم وانهزموا لخوفهم من القتل . ثم إن الهنود فتحوا الأحمال وأخذوا من البضائع الذي اختاروا ، وتركوا لهم عوضها أقراصاً من ذهب . فأتى أهل القفل وأخذوا ذلك الذهب عوض متاعهم .

الوقوع في المرض

وأما أنا فبعد وصولي إلى هذا البلد كونكا المذكورة صار مزاجي ضعيفاً وبقيت مطروحاً في الفراش عشرة أيام معالجاً من الأطباء . لكن شافية المرضى مريم العذراء

---

(59) رهبان مار عبد الأحد (الدومنيكان) بعض طقوس قديمة في ليتورجية القدّاس خاصة بهم تقترب من عوائد الشرقيين وهي لاتزال مرعية عندهم إلى أيامنا .

أعطتني العافية . وحاكم تلك البلدة كان صاحبي لأنه كان رفيقنا في المركب لما سافرنا من إسبانية ، فأراد أن يعمل لي فرجة لأجل انشراحي وهذا المفترج يسمونه في بلاد إسبانية عيد الثور ويلعبون على هذا النوع : أولاً يحوطون ساحة برفوف وخشب ثم يضعون خوانات شيئاً فوق شيء ، يعني كمثل الدرج ، ويجتمع الناس ويجلسون فوق هذه الخوانات ، ويستكرون كل واحد منهم لأجل الفرجة . وبعد ذلك يأتون إلى تلك الساحة بثور من الثيران البرية الوحشية ، ويكون ذلك الثور مسجوناً ، فعندما يفلتونه على غفلة في تلك الساحة المحاطة بالناس يجري الثور جزعاً وما ينظر له درباً ينفذ منه . فبعد ذلك يدخل إليه خيّال وفي يده رمح ويتلاعب مع الثور ، والثور يهجم عليه فيهرب منه ، وبعد ذلك يَقتل الثور . والثور ، أيضاً ، بعض أحيان يقتل الفرس وفارسها بقوة قرونه ، وهذا العيد والمفترج في كل مُلك إسبانية اعتادوا أن يصنعوه في موسمه كل عام .

(16)
جبال من ذهب

ومن بعد ذلك خرجت من هناك قاصداً قرية تسمى خاوخا[60] فسِرنا في صعوبة الأمطار ليلاً مع نهار مقدار ثلاثة أيام ، ودخلنا إلى خاوخا ، وبقيت هناك يوماً وليلة من شدة البرد وكثرة الأمطار ، وثاني يوم خرجت منها قاصداً الجبال التي هي معدن الذهب إلى قرية تسمى صارونا (Zaruma) فصرنا في درب عسر المجاز بين الجبال مقدار ثلاثة أيام ، ووصلت إلى تلك القرية المذكورة وهي على رأس جبل وحولها المعادن الذهبية . فنظرت جميع تلك الصنائع التي بها يُستخرجُ الذهبُ من الحجارة . أولاً يطلعون الحجارة من المعدن ويسحقونها بطاحون الماء ، وحينئذ يغسلون ذلك التراب المسحوق ويقطعون منه الذهب بتصويله في الماء . ثم يذوِّبونه ويسكبونه أقراصاً . وأنا اشتريت من ذلك الذهب أربع مئة مثقال لأن ما كان زمان شغل كل

(60) هكذا في الأصل ، واسم هذه المدينة في الخرائط لوخا (Loja).

الطواحين . وبعد عشرة أيام أردت أرجع إلى دربي ، لكن خوري تلك الضيعة قال لي أن يوجد دربٌ آخر وهو أحسن من دربك ، لكنه دربٌ قفرٌ خال من الناس والقرى ، فتحتاج أن تأخذ معك زوادة كفاية خمسة أيام . فوقفت لشوره وطعت لقوله ، وحملت معي ما أحتاج من الزوادة ، وأخذت معي رفيقين أعني مكاريين ، الواحد منهما هندي والآخر مستيسو ، يعني ممزوج ؛ أمه هندية وأبوه إسبنيولي .

(17)
الصبي الهندي

ثم سِرنا في درب عاطلٍ بين الجبال يوماً وليلة ، فأراد الشيطان أن يطغي ذلك المكاري المستيسو ، لأنه كانَ قد نوى قتلي ، لكن الله تعالى كشف نيته على يد خادمي ، فأخذت منه السلاح وبقيت متحذراً على روحي إلى وقت ما وصلنا إلى ثلاث قرى مقتربة لبعضها ، الواحدة تسمى باسيليكا والثانية جونجوناماه والثالثة واكاناما ، فلما نظرني سكان هذه القرى الذين هم هنود تحيَّروا مني قائلين : كيف دخلتَ في هذه الدرب العسرة ، إما أنك نبي أو قديس . وقسوسهم أيضاً هنود مثلهم لكن هنود تلك البلاد ليس لهم ذقون ، بل بعض شعرات ثابتة في حنكهم . وأنا لأجل أني كنت رجلاً كامل اللحية فكانوا يتعجبون مني قائلين إنني ذو شجاعة شديدة بحيث جزت تلك البلاد .

الخائنان !

ثم ثاني يوم خرجنا من هناك مسافرين وقاصدين قرية تسمى طابيه (Amotape) فبينما ذات ليلة وأنا نائم تحت الخيمة عمل رفيقاي الاثنان المذكوران ما بينهما شوراً وتدبيراً على قتلي ، وأنا كان معي صبيٌ صغير من أولاد الهنود وكان يعرف اللسان السبنيولي ، وهذا الصَّبي قام في الليل وإلا سمع كيف أنهما تشاورا على قتلي ، فأسرع الصَّبيُ مرتعشاً إليَّ وفيَّقني وأعلمني بهذا الأمر ، لكن بتوفيق الله تعالى ، انفرد تلك الليلة بغل من البغال وظلّ هارباً بين الجبال . فأخذ رفيقي

المستيسو المذكور يركض خلفه طول الليل ، ورجع به عند طلوع الشمس . فذلك الوقت أخذت منهما أسلحتهما لأن ما كان معي سلاح ومن خوفي من مكرهما أخذت السيف بيدي وناديت المستيسو وقلت له : ابرك[61] على ركبتيك واصدقني كيف طغاك الشيطان على هذا الفكر؟ اعترف أمامي بالصحيح . فأقرّ معترفاً وطالباً مني أن أغفر له وأسامحه . ثم بعد خمسة أيام وصلنا إلى تلك القرية المذكورة ، فمن قبل دخولنا إلى القرية بين الأشجار ، هرب هذان الخائنان من خوفهما وتركا بغالهما ، فجاء خوري الضيعة واقتبلني بإكرام . ثم إني حكيت له عن الأحوال التي عَرَضَتْ ، فقال لي : الله نجاك من شرِّهم ، لأن أخي هكذا قتلوه في هذا الدرب . وهذه القرية يجري بجانبها نهر يسمى نهر كولان (Fleuve Colan) وفيه سمك زائد وهو كنهر الدجلة . فذاك اليوم جزت هذا النهر ووصلت إلى بلد يسمى كولان(Ville De Colan) كلّه هنود . ثم نزلت في بيت الخوري ، وكانت ليلة عيد مار يعقوب أخي الرب ، فعزمني الخوري أن أُقدِّس ثاني يوم ، وكل النذر الذي يقدم للخوري يكون لي أنا . فقدَّستُ ثاني يوم وحضر جميع الهنود قداسي وكان عددهم أربعة آلاف نفر . وبعد خلوص (انتهاء) القداس جلست على كرسي وعملت بركة ، أعني خبزاً مباركاً . فبقي الناس يجيئون يبوسون يدي ويأخذون البركة ويرمون النذر في الصينية . فبعد خلوص ذلك ، نظرت اجتمع من النذر مقدار مائتين وخمسين غرشاً .

(18)
كاسيكي ومغارة الذهب

فبعد يومين كتبت إلى حاكم بلد بيوره أن يرسل لي تختروان الذي يسمى بلسان السبنيولي ليتيرا[62] لأن هذا الحاكم كان مرافقنا من إسبانية مع عياله . ففي حال وصول مكتوبي إليه أرسل لي التختروان . لأن في تلك الأرض يصير تعب عظيم

---

(61) أي أجلس ، وهي كلمة حلبية .

(62) (Litere) وبالفرنسية Litiere وتختروان كلمة فارسية مركبة من لفظين معناها سرير السفر .

للذين يروحون راكبين الخيل بسبب الحر والرمل . فجزنا إلى ميناء على ساحل النهر يسمى بايتا (payta) وهي بعيدة من كولان فرسخين ، ومنها سافرنا بالليل إلى بلدة تسمى بيوره درب أربعة عشر فرسخاً . فنزلت في دار الحاكم واقتبلني بزائد الأكرام . وهذه البلدة ساكنوها إسبانيولية مع هنود أغنياء وبها كنائس مزخرفة ومحتشمة .

وذكروا لنا أنّ من مدة خمس عشرة سنة كان رجل من أشراف الهنود يسمى كاسيكي ، وكان غنياً وما له سوى بنت واحدة . فيوماً من الأيام سافر أبوها إلى غير بلد . فالبنت المذكورة نظرت رجلاً لابساً ثياباً حقيرة ، فقالت له : ما بالك لابساً هذه الثياب الدنية . فأجابها قائلاً : لشدة فقري وعازتي . فأجابته قائلة : إن كنت تكتم السِّر فأنا أعطيك من الخيرات حتى أرضيك وأغنيك . فقال لها : نعم هكذا يكون . فوعدته هذه البنت أن لما يحين الليل يجيء ينتظرها في المكان الفلاني ، فتأخذه إلى مغارة أبيها التي هي خارج البلد . ثم إنها أخذت ذلك الرجل بعد أن ربطت عينيه وقادته إلى المغارة المذكورة كضرير . فلمّا وصلا إلى المغارة حمّلته من أقراص الذهب على قدر ما يقدر حمله ، ورجعت إلى قرب البلد وفكت الرباط عن عينيه وأطلقته بسبيله . فلمّا جاء أبوها من سفره قصد ذات يوم المسير إلى المغارة ، ونظر في باب المغارة أصلَ دوسة مَداسٍ فعلم أن ذلك الكشف صار من بنته فسقاها سماً وماتت ، وهو أيضا مات على غفلة . وإلى اليوم يستقرون المغارة وما قدروا أن يلاقوها .

(19)
علم أبيض على شجرة عالية

وبعد أن مكثت هناك عشرة أيام خرجت قاصداً قرية تسمى ليلموا فسرنا في درب مقفر عديم الماء وكله رمل مثل أرض مصر وكل أهل هذه القرية هنود لكن قسيسهم فقط إسبنيولي فالبعض منهم نصارى حقيقيون والبقية نصارى من خوفهم . وثاني يوم خرجت قاصداً بلدة للهنود تسمى لمبايك (LOMBOYEQUE) وهذه البلدة كبيرة يسكنها هنود أغنياء وبعض من السبنيولية . فعزمني وكيل الأسقف الذي هناك إلى داره ، وطلب مني أن أقدّس يوم الأحد وأكرز على الهنود

باللسان السبنيولي . فقدست نهار الأحد وكرزت عليهم ، وكان في الكنيسة خمسة وثلاثون قسيساً ومقدار ثلاثة آلاف نفس من العوام ، فصار لهم انشراح عظيم من تلك الكرزة ، وكانوا يتعجبون مني بسبب الذقن وتغيير الثياب وكانوا كلهم يكرموني ويتباركون مني ، لأني وهبت لهم مسابح وصلباناً من القدس . ثم بعد خمسة أيام خرجت من هناك قاصداً بلدة تسمى سانيا (SAGNA) وهذه بلدة كبيرة يسكنها هنود واسبنيوليون . وفي جانب هذه البلدة يسلك نهر كبير ، وكنت أسافر في الليل لشدة الحر وأنا راكب في ليتيرا ، أعني تختروانا .

فذات ليلة تغافل المكاري ونعس فضلّ البغال عن الدرب ودخلت في الحرش بين الأشجار ، وهذا الحرش داخله عظيم لا له أول ولا آخر . فلما فقت على ذلك أمرتُ خدامي أن ننزل هناك لئلا نتيه أزيد عن الدرب ونهلك مثلما جرى لآخرين . فلمّا صار الصبح قلت للمكاري الهندي أن يعمل ناراً كثيرة ودخاناً عظيماً . فأما رفقاتنا فكانوا سبقوني إلى المنزل . فلما نظروا أننا تعوّقنا عَلِموا أننا تهنا عن الدرب فأرسلوا أناساً ليفتشوا عنّا . فأنا قلت للمكاري أن يصعد إلى رأس شجرة عالية وينشر علماً أبيض ، يعني بيرقاً ، فثاني يوم قريب نصف النهار وصل إلينا أولئك المفتشون ، فرأونا هناك على نيشان ذلك البيرق واغتاظوا على المكاري كيف أنه حاد عن الدرب . وأكثر أشجار ذلك الحرش من أشجار القطن ، ما لهم أصحاب ، وهو خشن جداً قدر الرمّان ، وحبُّه قوي صغير لكن شعرة هذا القطن طويلة كالصُّوف ، وكل من يريد من الهنود يروح يأخذ قطناً على قدر حاجته ، وينسجون منه ميازر للنساء وغيرها من الحوائج اللازمة . فوصلنا بعد يومين إلى البلد المذكور الذي يسكنه إسبنيول وهنود وحاكمهم يسمى جنرال . فبقيت هناك أربعة أيام بعزّ وإكرام من الجنرال ومن وكيل الأسقف . ثم خرجت من هناك قاصداً بلداً يسمى طروخيليو (Trujillo) فسرنا درب عشرة أيام وهو درب عسر قليل المنازل وعديم المعاش ، وكنت قد أخذت معي ما أعتاز إليه من قسم الأكل والشرب ، وكان لي حصان وبغلة يدك[63] لما يكون الوقت بروده كنت أركب عليها ، وإذا وغلتُ وتعبتُ من الركب كنت أدخل إلى التختروان . فجزت إلى هذه البلدة المذكورة ، وهي

---

(63)يدك ، كلمة تركية يراد بها دابة ثانية يستعملها الخيَّال عند الحاجة .

كبيرة يسكنها أسقف ، وكان حينئذ الأسقف قد توفي وبقي الكرسي خالياً . وفي هذه البلدة رهبان من رهبنة مار إفرنسيس ورهبنة مار أينياسيوس اليسوعية ، وأيضاً قسوس وخوارنة جميعهم مقدار ألفي كاهن . فعزمني رهبان مار أفرنسيس أن أقدس عندهم وكان نهار عيد مار أفرنسيس الذي دائماً يحكم (يصادف) في تشرين الأول . فرحت قَدَّستُ هناك ، فكانت الكنيسة ملآنة من الناس ، فانشرحوا كثيراً من قداسي لأن كان معي آلة القداس والبدلة التي كان أنعم عليّ بها سيدنا البابا . وكان نيشانه وختمه مرسومين عليها . وكان الناس يأتون ويتباركون منها .

(20)

اجتياز النهر

فمن بعد أن بقيت في هذه البلدة عشرة أيام رجعت قاصداً بلد خامار (CAJAMARCA) التي هي في رأس جبل وكان يسكنها ملك الهنود الذي كان يسمى اينكارسوف . وسنتكلم عن خبر هذا الملك العظيم . فبقيت هناك ثلاثة أيام وأروني كل ما صار على هذا الملك وكيف قتله الأسبنيولية . واليوم الرابع خرجت من هذا البلد قاصداً بلدة ليما (LIMA) حيث يسكن وزير الملك الذي يحكم على تلك البلاد ، فنزلت من الجبل قاصداً البلدة المذكورة ومن بعد أربعة أيام وصلنا إلى نهر يسمى سانتا (SANTA). فهذا النهر زائدُ الماءِ وماله مجازٌ فيجوزونه بشدة وخوف . لأن الهنود اخترعوا شيئاً للمجاز يسمى بالصا (BALSA) يعني كلكا فيجمعون قرعات يابسات ويربطونها ببعضها مثل كلك ثم يجعلون عليها خشباً وفوق الخشب حشيشاً مثل عروق الشجر ، ويحملون الأحمال عليها ويفوتون الناس من جانب إلى جانب . والدواب تقطعه سباحة بالماء . فجزنا هذا النهر بخشوع وطلبات إلى الله ووالدته مريم العذراء ومن هناك بقينا مسافرين وجزنا على أراضي قصب السكر وعلى المعامل التي فيها يشتغلون الجوخ . وكان في رفقتي رجلان فقيران كل واحد ناقصة له يد . فالأول كان جندياً وانقطعت يده بالحرب مع الهنود ، والآخر كان لدغته حية في يده فقطعوها له .

(21)
الإقامة في ليما

فمن بعد ثمانيـة أيام وصلنا إلى مدينة ليـمـا (Lima) المذكورة ونزلتُ في بيت الأنكيـجـيـدور (Inquisid) أعني رئيس ديوان الإيمان (ديوان التـفـتـيش) لأنه كـان صاحبي من إسبانية . وكنت ديَّنته ألف وأربعماية غرش في مدينة بورتوويلو فأعطاني فائدة عن كل ماية غرش أربعين غرشاً مثل ما يسلك بين التجار في تلك البلاد . ثم بعـد أن ارتحت من تعب الدرب رحت قـابلت الوزير وقـدمت له أمـر الملك ومكاتيب الوصية التي أحضـرتها معي من إسبانية . وهذا الوزير كان رجلاً مباركاً اسمه دون بغدسار ويلاكوكونده ده كستيليارو مركيز ده ماراكون من أكابر إسبانية . فقبلني بفرح عظيم ووعـدني أنه يسـاعـدني في جـميع الذي أعتـازه . ثم إني دخلتُ زرتُ امرأته فاقتبلتني أيضاً بالإكرام . وهذا الوزير المبارك كان قد تزوج منذ أربع عشرة سنة وما رزق ولداً ، وسنأتي بعد هذا بحكايتـه . ثم إني رجـعت فزرت كـبير الكـهنة الذي يسـمى أرشيد ياقون مع جملة أرفاقه الكهنة لما كانوا مجتمعين في الكنيسة للصلاة . وأما مطران هذه البلدة فكان قـد توفي وبقي الكرسي خـاليـاً من مطران . ولهـذه المطرنة مدخول في كل سـنة خـمسين ألف غـرش وتحت يده مـائة وعشـرون خـورياً ، وكـانوا منتظرين المطران الجديد الذي كان آتياً من إسبانية .

تصاوير في منديل !

وبعـد أن بقيت في هذه البلدة عـشـرين يومـاً وقـعت مـريضـاً في الفـراش بمرض شـديد ، وكـان حكمـاء الوزير يعـالجوني ، فشـفـاني الرب من مرضي بعد عشرين يوماً بشفاعة أم الرحمة مريم العذراء . فقمت ورحت عند الوزير وتلاقيت معه ثاني مرة ، فـقبلني بفـرح وعـز وإكـرام . ولمّا كنت مـريضـاً كـان يرسل عندي خـزنداره يزورني مع أحـمال من الحلاويات المفتخرة ، وكان يسأل عن حالي كل يوم مرتين . وفي ذلك الحين جاء رجل من أصحاب المعادن وقال للوزير أنه يقدر يستخرج الفضة من الحجر ، من غير أن يضيف إليها زيبقاً ، فلمّا امتحنوا صنعته وجدوها اختراعاً كاذباً ، وأنا كنت

حاضراً ونظرت ذلك عياناً .

وقبل أن تملك السبنيولية هذه البلاد ما كان أحد يعرف الإله الحقيقي ، وكان البعض يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، وما كان لهم أحرف ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لكن لما يريدون أن يقدموا عرض حال إلى ملكهم كانوا يصورون تصاوير في منديل على حسب شكاوتهم . وكان في زمان فتح هذه البلاد ملكان أخوان الواحد يسمى وداواليا والآخر يسمى وسكارانيكا ، وكان بينهما الحرب ، وكانت آلة سلاحهم وعدتهم القوس والسهام ورماح ومقاليع لحذف (قذف) الحجارة . . وما كان لهم مواشي أعني مثل أفراس وبغال وحمير ، ولا ثيران ولا بقر ولا غنم ولا دجاج ، سوى جنس حيوان شبه الجمل بقدر الحمار وحدبته في صدره ، يحملون عليه ويأكلون لحمه ، لكنه ما يسافر بعيداً . وكل يوم قناقه أربعة فراسخ لا غير ، فلما يتعب ينام ويزبد ويتفل على أصحابه . وهؤلاء الهنود لما كان يموت أحد منهم كانوا يصنعون له قبراً عالياً علو ذراعين وطول ثلاثة أذرع وكانوا يضعون في قبره آلة صنعته مع شربة من خمر الذرة .

(22)
قدّاس سرياني

وفي هذه البلدة يصير زلازل كثيرة وشديدة . ثم إن الوزير وعدني أن يقف بخدمتي طول ما أنا بالهند . وكتب إلى جملة البلاد والقرى التي تحت حكمه يوصيهم علي بالإكرام . وفي ليما عدة ديورة وكنائس أولها الكنيسة الكبيرة التي هي كرسي المطران وغير كنائس للقسوس وأربعة ديورة لرهبان مار إفرنسيس وثلاثة ديورة لرهبان المرسي (Merci)وأربعة ديورة للراهبات ، وفي كل دير يسكن ألف راهبة .وأيضاً أربعة ديورة لراهبات الفقراء مثل أيتام وأرامل ومنقطعين ، وديران باسم مار يوحنا لمداواة المرضى ، أي الغرباء ، والفقراء واسبيتال يعني مارستاناً كبيراً على اسم الملك ، لأن الملك يصرف عليه ، ويسمى مار أندراوس وكانوا يعزموني لأقدس في الكنايس والديورة ويكرموني غاية الإكرام . وبقيت في هذه البلدة مقدار سنة في بيت رئيس ديوان

الإيمان (التفتيش) المذكور أعلاه يسمى دون خوان باتيستا ديلاكانترا ، يعني يوحنا المعمدان من بلد كانترا . وهذا المبارك كان رجلاً كاهناً وما أراد أن أصرف شيئاً على المأكول والمشروب . وهذه البلدة غالية المعاش بهذا المقدار ، حتى إن الدجاجة تساوي غرشاً ونصف غرش . وبعد أني تعافيت من مرضي زارني جميع رفقة الكهنة الذي يسمى كبيلدو (Cabildo)[64] يعني ديوان الكنيسة من حيث أخذوني في الرفقة إلى الكنيسة بالزياح ، وعند دخولنا للكنيسة حيث يمكث المطران والخوارنة أجلسوني جانب كرسي الأرشيد ياقون الذي بجانب كرسي المطران إكراماً لي . ثم طلبوا مني أن أقدس فأرسلت وأحضرت من الدار آلة القداس فقدست لهم قداساً باللسان الكلداني يعني السرياني الشرقي فصار عندهم انشراح زايد لاستماع قداسي . فثاني يوم صنعوا ديواناً بآياتهم (مع بعضهم) وأرسلوا إليّ ألف غرش . وكذلك أيضاً في باقي الكنائس والديورة من الرهبان والراهبات كانوا يرسلون إليّ شيئاً كثيراً ، وأنا كان لي عجلة يعني عرباني[65] بأربعة بغال مع عبد أسود خادمها .

(23)
الوصول إلى أرض الزئبق

ومن بعد السنة طلبت إجازة من الوزير لأروح إلى جبال الفضة والذهب ، فأطاعني الوزير وأصغى لطلباتي ، وكتب لي مكاتيب إلى جميع حكام البلاد وأبرشية القرى الذين تحت حكمه ، وصيَّة علي بأن يعزوني ويكرموني ، وأرسل رفيقاً رجلاً من جنوده لكي يسبقني في الدرب ويهيئ لي ما أحتاج من المأكول والمشروب والمنزل في بيت حاكم القرية . فخرجنا من ليما وهذا الرجل برفقتي قاصدين بلدة تسمى خون كاباليكا (Guancavalica) ثم سرنا يومين بدرب سهل وصعدنا في اليوم الثالث إلى جبل الثلج ، ولا زالت الأرياح والبرد شديد . فابتدأت تتغير أمزجتنا وتقيأنا من سبب

---

(64) وبالافرنسية (Chapitre) أي الفرع .

(65) أي مركبة .

أننا خرجنا من أرض شديدة السخونة وجزنا عاجلاً إلى أرض باردة . ثم بعدما صعدنا إلى أعلى الجبل سرنا من مكان يسمى بوناده برياكاكا يعني زمهرير السكر ومن هناك سافرنا فرسخين فتلاقيت مع رئيس رهبان مار فرنسيس الذي يقال له بروبنسيال (Provincial) فسألني عن الدرب فحكيت له ما جرى علينا من تغير المزاج ، فعند ذلك افترق منا ورحل من درب آخر . ووصلنا في ذلك النهار إلى نهر يسمى نهر بوني وعليه جسر ممتد من جانب إلى جانب منسوج من حبال القنب ومربوط بالأشجار ، ففتنا عليه بصعوبة ، وأخذوا الخيل إلى درب آخر مجردات وأدخلوها النهر . ومن بعد عشرة أيام وصلنا إلى البلدة المذكورة خوان كاباليكا وهي بلدة صغيرة فنزلت في دير اليسوعية . وفي هذه البلدة تختلف الأرياح ثلاثة مرات في النهار ، ووقت العصر دائماً تمطر . وهي أرض قليلة العافية لاختلاف الأهوية ولسبب الجبل الذي فيه معدن حجر الزيبق لأنه مسلط على البلد .

استخراج الزئبق

ثم إني رحت لأنظر المعدن مع حاكم البلد فرأيت هذا المعدن وعظمته ونظرت أيضاً أن الفَعَلَةَ يقطعون الحجارة ويخرجونها من تحت الأرض إلى فوقها . ثم أروني كيف يخرجون الزيبق ، فأدخلوني إلى بيت جعلوا أرضه ثقوباً ملصوقة ببعضها ، موضوعاً في كل منها برنج[66] والبرانج مصفوفة ومنصوبة صفوفاً صفوفاً ، ولها فم واحد منصوب إلى فوق ، والفم الأسفل مسدود وغير مفتوح كمثل أجران . فيضعون حجارة الزيبق بصنعة مصطفة فوق البرنج ، كمثل عمل الفاخوري في أفران الخشف (الخزف) وكذلك أيضاً يضعون الحجارة على البرانج . وهذا البيت له سقف مغطى لكن قوي عالي وفيه أبخاش لأجل منفذ الدخان . ثم يضعون الحطب فوق تلك الحجارة ويضرمون به النار فيشعل وتسخن الحجارة سخونة قوية ، ويجري منها الزيبق هارباً ومنحدراً داخل تلك البرانج . فعند ذلك يفهم معلمو الزيبق فيهدئون النار ، ويخلونه يوماً وليلة حتى يبرد وبعده يرفعون الحجارة والرماد ويكبونه (يلقونه) خارجاً ويطالعون

---

(66) البرنج ، كلمة فارسية معناها النحاس ونظنها بمعنى الخابية والبرنية .

(يخرجون) الزيبق من تلك البرانج . وهناك وكيل من جانب الملك يضبطه للملك ، وهو يوفي لأصحاب المعدن اثنين وخمسين غرشاً حق كل قنطار ، وقنطار هذه البلاد هو ستة أمنان خند كاري[67] ويبيع وكيل الملك القنطار بتسعين غرشاً لأصحاب معادن الفضة ، لأجل استخراج الفضة من الحجارة . وسوف نتكلم عن ذلك أيضاً . ثم إني قدست هناك على هيكل لهم في وسط المعدن ، وباركت عليهم وعلى معادنهم[68] وقدم لي أصحاب المعادن بشكاس[69] مقدار خمسين قنطار من الزيبق ، وقالوا لي : اصبر إلى شهر بينما يخرجون الزيبق من الحجارة ويعطوني المبلغ المذكور . فمن سبب الأهوية المختلفة خفت ، فتركت هناك وكيلاً ليستلم منهم الزيبق وقتما يستخرجونه ، لكن عليه يسق[70] من الملك أن لا أحد من أصحاب المعادن يقدر يبيع زيبقاً ، ولا أحد يقدر يشتريه . وإن تجاوز أحد هذا الشرط ينهبوا ماله ويحل عليه القتل .

(24)

المياه المتحجرة

وفي هذه البلدة يوجد جنس ماء لونه أسمر يجعلونه في وسط صناديق ويبقى ثمانية أيام في الهواء فيجمد حينئذ ويصير حجراً يعمرون به البيوت ، وأنا نظرت

---

(67) الخندكار لفظة بالفارسية معناها السلطان .

(68) قرأنا في كتب الأب فولين (Feuillee) المرسل الفرنسيسي في البيرو من معاصري صاحب الرحلة وصفاً مسهباً لهذه المناجم قال : إن مناجم الزيبق الشهير في كل أمركة الجنوبية ، محفورة في جبل واسع بالقرب من غوانكافاليكا (Guanacavalica) وهي ممتدة تحت جبل حفر فيه منازل ودروب ومعبد . والمناجم مضاءة بعدد لا يحصى من الشموع . ثم وصف استخراج المعدن وصفاً لا يكاد يفترق عما جاء في متن رحلتنا سوى أنه قال أن سعر القنطار ثمانين غرشا .

(69) بشكاس ، لعلها باش كاس ويظهر من القرينة أن معناها الهدية أو البخشيش .

(70) يسق ، كلمة تركية معناها مانع أو محذور .

ذلك عياناً . وإذا وضعوا في وسط هذا الماء خشبة وبقيت أربعين يوماً فيخرجونها من الماء نصفها حجر صوان والذي يبقى فوق الماء من الخشبة يبقى على حاله خشبة وأنا أهداني أحد رهبان اليسوعية صليباً من هذا الجنس[71] .

وبعد عشرة أيام خرجت من هذه البلد وصحبي أربعة عشر رجلاً خرجوا يودعوني إلى خارج البلد ، ثم افترقوا مني ورجعوا . وأنا أخذت دربي قاصداً بلدة تسمى أكوامانكا (Cuamanca) وفي هذا الدرب يوجد أشجار مختلفة الأجناس وأكثرها أشجار يسمونها توكال أوراقها سماك كفين وما لها أغصان ، لكن الأوراق مشوكة وفي طرف الورقة تصير الثمرة ويسمى في لسان الهنود تونس . وهذا الثمر كقدر بيض الدجاج لكن أصلب وداخله حاو كطعم التوت وهو مسهل ومبرد فمن خارج الثمرة يصير شوك ناعم فيلتزم الإنسان أن لا يمسكها بيده ، إلا بعد أن ينظفها من الشوك . وهذا ممتلئ منه البرد والجبال في ذلك الإقليم[72] .

ثم بعد أربعة أيام وصلنا إلى البلدة المذكورة ، ونزلنا في دير اليسوعية لأن رئيسهم كان رجلاً صالحاً ، وكان قد أرسل لهم مكاتيب يوصيهم على أن ينزلوني عندهم . وفي هذه البلدة كان أسقف غني جداً ، لأنه كان أولاً رئيساً لديوان الإيمان (التفتيش) ويسمى الأسقف دون كريستوفلو دي كستيلو . وبعد أن استقريت في الدير تلك الليلة جاءني في الغد قسيسان من جانب الأسقف يهنئاني بوصولي . فثاني يوم باكراً رحت أنا زرته فقام هو أيضاً بنفسه والتقاني وسألني عن حالي وعزمني (دعاني) إلى داره حتى أتغدى ذلك اليوم معاه ، فطاوعته وتغديت معه . ومن بعد المأكول أنعم علي بجنزير ذهب يساوي مايتي غرش . فلما سمع أكابر البلد بالإكرام الذي عمله لي هذا الأسقف المبارك جاءوا جميعهم زاروني . ومن بعد أربعة أيام خرجت مع راهبين

---

(71) ذكر الأب فوليه المذكور هذه المياه المحجرة قال : إن ماء هذا النبع غاية من السخونة حال خروجه ، ويتحجر سريعاً إذا ما سال في الحقول . ومن حجاره يبني البناؤون المنازل جاعلين المياه في قوالب مخصوصة حسب رغبتهم وحاجة العمارة ، ولا يَتعب الحفارون ونقاشو التماثيل إذا أرادوا نقش تمثال ، فإذا ما أتموا القالب وسكبوا فيه الماء جاء التمثال حجراً بديعاً ينحتونه قليلاً زيادة في لمعانه .

(72)هو وصف شجرة الصبّير المعروفة .

يسوعيين ورحت زرتهم وأوفيتهم زيارتهم كعادة تلك البلاد . ثم الأسقف أرسل لي رفقة ليدلوني على بيوت الذين جاؤوا زاروني لأن اليسوعية كانوا قد كتبوا أسماء الذين زاروني واحداً واحداً . وفي هذه البلدة كنائس وديورة غنية جداً . فمن بعد ما زرتهم وارتحت ثمانية أيام رسم هذا الأسقف أن يعملوا كوميدية يعني تقليد القديس رجل الله الروماني الذي يسمى باللسان الفرنجي سان ايليسوا (Alexius) وفي العربي مار ريشا . وهذه الكوميدية هي تشخيص ما عمل هذا القديس ، وكيف أعطى خاتمه لعروسته وشقّ المحيط وطلع راح يسوح في الدنيا[73] . فحضرنا هذا التقليد وانشرح خاطرنا ، وكان أناس هذه البلدة يكرموني للغاية بسبب أن الوزير كان قوي صاحبي ، وبقيت في هذه البلدة عشرين يوماً في غاية ما يكون من الانشراح .

(25)
الحيوان الأنيس

ثم خرجت من هناك قاصداً بلد كوسكو (Cusco) وخرج حاكم البلد ورئيس اليسوعية مع رفقائه وغير أصحاب ليودعني ، فسافرنا نصف فرسخ ثم تودعنا وافترقنا ، فهم رجعوا إلى البلد وأنا ظليت (ظللت) مسافراً . ومن بعد يومين وصلنا إلى نهر يسمى بوريما (Apurimae) وكان على هذا النهر جسر ممتد منسوج من عروق الأشجار والأغصان ، عرضه ذراع ، أقل أم أزيد ، وطوله عشرون ذراعاً . فجزناه بصناعة عظيمة مع خوف شديد ، لأن الأحمال يحضرونها عن الأبغال ويدخلها الهنود على ظهرهم إلى جانب الآخر واحداً بعد واحد . وأما البغال فيزلطونها (ينزعون عنها) من جلالاتها ويجيزونها الجسر ، فإذا سقطت رجل البغل بين الخشب الممتد على ذلك الجسر ، حينئذ يخلون رؤوس الخشب فيسقط البغل من ذلك العلو إلى وسط الماء ، ويسبح ويفوت إلى الجانب الآخر . فبهذا التعب العظيم جزنا بسبب أن الجسر يتجوجح وينهز كالمهد لما يدوس الإنسان عليه ، فلما حصلنا في ذلك الجانب شكرنا

---

(73) أخبار مار ريشا المشهورة . (اطلب المشرق 650 : 8) .

الباري تعالى على خلاصنا . فأما الهنود بسبب أنهم يعرفون السباحة فإذا سقط أحدهم في الماء يخرج سالماً . ومن هناك سرنا في الدرب فوجدنا أجناساً من الحيوانات منها خيل وأفراس وحشية وبقر أيل وبغال وحمير وغير أجناس أخرى ، وهي تعيش في تلك الجبال المقفرة وما لها أصحاب . وجنس حيوان آخر يسمى بيكونيا وهو كصورة الغزال لكن بلا قرون . فهذا الحيوان قوي أنيس لمّا ينظر أناساً أو دواباً مجتازين ينحدر من الجبل ليتفرج عليهم . وعددها كثير . وأنا كان عندي كلاب للصيد وبندقية ، فقتلت بعضاً من هذه الحيوانات ، ولحمها لا يأكله غير الهنود ، وصوفها ناعم كالحرير يصنعون منه البرانيط ، أي الشبقات ، وهو شبه التفتيك[74] لكن لونه عسلي كلون الغزال[75] وفي بطن هذا الحيوان يوجد حجر البازهر بين كليتيه ، فيخرجونه ويبيعونه بثمن غال لأنه نافع للسموم[76] .

---

(74) الشَبقة هي البرنيطة ولعلها تعريب (chapeau) أما التفتيك فهو نوع من الصوف الناعم .

(75) جاء وصف هذا الحيوان المسمى (La Visuna) أو (le Guanaco) في كثير من الأسفار الأمركية وكانوا يستخدمونه لنقل المعادن في الطرق التي يتعذر على الدواب سلوكها .

(76) البازهر ، أو الفازهر كلمة فارسية معناها الترياق (من باو ـ نظف . وزهر ـ سم) وقد اشتهر هذا الدواء بين أطباء العرب ، وامتدت شهرته مع اسمه إلى المغرب ، فيقال (Bezuar) باللغة البرتغالية أو(BEzoard) بالافرنسية . قال التيفاشي : هذا الحجر بأيدي الناس صنفان أحدهما حيواني والآخر معدني ، ومعدنه بين جزيرة ابن عمر والموصل وهو هناك كثير ويوجد منه حجارة كبار ، وهو حجر رخو أبيض الحكاكة . وأما الحيواني فهو المقصود بالكلام في هذا الحجر . والباب هو حجر خفيف هش أصغر منقط نقطاً خفيفة ، وهو ذو طبقات بعضها على بعض ، وينحل سريعاً إذا حك ، ومحكه إلى البياض ، وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل يؤتى به من بلاد فارس من تخوم الصين ، والحيوان الذي يوجد فيه البازهر هو الأيّل الذي يكون بتلك البلاد ، واسمه عجمي أصله في لغة الفرس باكزهر أي منظف السم من الجسد ، وخواصه النفع من ذوات بأجمعها وهو يخرج السم بالعرق ويخلص من الموت . . الخ . وقد اعتبر في القرون الماضية كأعظم الأدوية وذلك خرافة لم يثبتها العلم .

(26)
حجارة الهنود القدماء

وبعد ثلاثة أيام دخلنا إلى مزرعة قصب السكر وتسمى الأرض شبنكاي . وهذه الأرض هي لليسوعية ويخرجون منها كل سنة ثلاثين ألف خند كاري من السكر . والفلاحون الذين يفلحون كلهم عبيد سود ويشتغلون في عمل السكر .

ومنها سرنا إلى البلدة المذكورة بعد ثلاثة أيام فوصلنا إليها ، وهذه البلدة كان يسكنها ملك الهنود المسمى وازاواليا أنيكا أخو الملك واسارينكا المذكور ، فلما وصلنا قريباً من البلد وسمع الرهبان اليسوعية خرجوا أمامي وأخذوني إلى ديرهم بالترحيب . وهذا الدير كان قديماً قصر الملك المذكور ووسع هذا الدير مع بستانه قدر نصف بلد . ودير الراهبات ، أيضاً ، هو داخل القصر . ووجدنا هناك من الحجارة المنحوتة من الهنود القدماء بغير آلة الحجارين الحديدية . وهي مشغولة بغاية الرستاق[77] .

وسكان هذه البلدة يومئذ أربعة آلاف بيت سبنيوليين وثلاثة آلاف بيت هنود ، ولهم أسقف رجل صالح مع بقية طوائف رهبان ومدارس لأجل أولاد السبنيولية ، ومدرسة أخرى بناها اليسوعية لأجل أولاد الهنود . ومن قبل أن أجوز في هذه البلد بمقدار ميل ، كان خرج لاستقبالي قسيسان من طرف الأسقف وحاكم البلد مع اليسوعية المذكورين ، وأخذوني إلى البلد بمقدار ميل . والأسقف كان قاصداً أني أنزل في داره ، لكن اليسوعية ما تركوني ، بل أنزلوني عندهم . وقصد حاكم البلد أن ينزلني في داره ، لكنني أبيت من الأسقف ومن الحاكم الذي كان صاحبي وجئنا من إسبانيا رفقة . وهذا الحاكم لما وصلنا إلى ليما تجوز (تزوج) من بنت أعطته نقداً ماية وخمسين ألف غرش ، كعادة بلاد النصارى إن البنت تعطي نقداً للرجل ، حسب حالها ، والأشراف كشرفهم . وفي اليوم الثاني جاء أسقف البلد زارني وجاء أيضاً

(77) الرستاق ، أو الرزداق ، السطر من النخل والصف من الناس ، معرب راست التي معناها الخط القويم بالفارسية ، وتأتي في اللغة العامية بمعنى ترتيب ونظام .

باقي الأشراف ورؤساء الديورة . ومن بعد أربعة أيام خرجت أنا واثنان من الرهبان اليسوعية في عرباني[78] وأوفيت زيارتهم .

(27)
الزلزال

ثم طلبوا مني أن أقدِّس في الكنيسة الكبيرة في حضرة الأسقف والقسوس والأعيان وباقي العوام ، فقدست لهم قداساً باللسان السرياني الشرقي . وأيضاً أهل الديورة والكنائس بقوا يجيئون يأخذوني حتى أقدس عندهم وكان عندي شماسان يخدمان قداسي ، وكنت عندهم بعز وكرامة ، وكانوا يهدوني هدايا من ديورة الراهبات ومن غير أماكن ، وأرسل لي ديوان القسوس الذي للكنيسة الكبيرة هدية لائقة ، وأرسل لي أيضاً أسقف البلد هدية بذلك المقدار ، وكان بعض أصحاب أعطاني عرباني لأخرج إلى خارج البلد وأتفرج على عمائر الهنود القدماء . فمن جملة ما نظرت قبور الهنود الذين في زمان كفرهم كانوا يدفنون ميتهم على وجه الأرض ويعمرون فوقه قبراً مرتفعاً جداً بعلو ذراعين وعرضه ذراع ونصف وطوله ثلاثة أذرع وهذه القبور منفردة عن بعضها كل واحد على جانب .

وفي تلك الأيام صار زلزلة عظيمة خارج البلد على نحو فرسخين ، وكان هناك جبل منصوب على نهر جار فسقط الجبل من تلك الزلزلة في وسط النهروسد جريان الماء ، فطاف ماء النهر على الأرض وأهلك مزارع ثلاث قرى . وفي سقطة الجبل في ذلك الحين وتلك الساعة ، صارت أيضا زلزلة في بلدة ليما وخرج الناس من البلدة لخوفهم ، لأنه سقطت منازل كثيرة مع بعضها كنائس .

وفي ذلك الحين جرى أمر من ملك إسبانية في عزل الوزير صاحبي المذكور وأنا بقيت خمسة أشهر في هذه البلد الكوسكو المذكورة وكان ذلك بسبب عرض الشتاء وزادت الأنهر العديمة المجاز .

---

(78) أو عربة ، كلمة فارسية بمعنى مركبة .

(28)
هنود بوقرتنبو (paucartambo)

ثم بعد هذا الزمان المذكور خرجت من تلك البلدة متوجهاً إلى بلدة تسمى بوقرتنبو ، وبعد سفر ستة أيام وصلنا إليها ، وفي الستة أيام المذكورة كنت أنام كل ليلة في ضيعة ، وعند دخولي إلى هذه البلدة خرج بعض أناس مع رهبان مار عبد الأحد وحاكم البلد لملاقاتي . فأخذوني إلى داخل البلد بالترحيب ، فنزلت في بيت الحاكم لأنه كان خادم الوزير صاحبي . وهذه البلدة هي ستر ، يعني حداً ما بين الهنود الكفرة ، والسبنيولية . والهنود يأخذون الرجال والنساء والأطفال إلى أرضهم ويستعبدونهم ، ولما يكون عندهم عيد أم عزيمة (وليمة) يذبحون واحداً من السبنيولية ويشوونه ويأكلونه .وعند هؤلاء الهنود يوجد جنس حشيش إذا علكوه يسكرهم ويعطيهم شجاعة وقوة كشراب الخمر ، يسمى ذلك الحشيش كوكا (coca)[79] . وما يوجد عندهم لا قمح ولا شعير سوى درر مصر (الذرة)[80] ويجعلون من هذه الدرر بوزة ويشربونها فتسكرهم كالعرق . وهؤلاء الهنود كثيرو العدّ شديدو القوة وما يقدر السبنيولية أن يقاوموهم لأنهم ساكنون في جبال شامخة وعليهم أمير مدبر وهو الذي يحكم عليهم .

(29)
استخراج الفضة

ثم بعد ثلاثة أيام خرجت من هذه البلدة متوجهاً إلى معدن الفضة المسمى

---

(79) الكوكا ، حشيشة لها خاصة معروفة لتقوية أعضال الجسم وقد اشتهر الآن استعمالها في العقاقير .
قال أحد الرَحّلة المعاصرين لكاتبنا : أن الوطني في ضواحي كوسكو يمتنع عن الطعام ولا يمتنع عن مضغ حشيشة الكوكا فإنه يجد فيها طعاماً وشراباً ودواءً .

(80) درر ولعلها درا مصر اسم للذرة على لسان العوام حتى في أيامنا ولعل ذلك لاشتهار الذرة المصرية .

قندونوما (CONDONOMA) وبعد يومين وصلنا إليه . فمن زيادة البرد وشدة الزمهرير ما قدرت أمكث هناك غير ثلاثة أيام ، وبعد ذلك رحت إلى معدن آخر يسمى قليوما وهو درب يوم عند جانب قرية صغيرة يخرجون هناك الفضة . وفيها تفرجنا على إخراج الفضة وكيف يطحنون الحجارة مثل التراب ويجعلونها في الماء كالطين وبعد ذلك يمزجون فيه الزيبق وطول النهار يحركونه مقدار عشرة أيام أو اثني عشر يوماً ، والزيبق يجمع الفضة ويلتصق بها . ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه في حوض مجلد بجلود البقر ، والماء يأخذ التراب ويوديه . والفضة ترسخ (ترسب) إلى أسفل . هذه الصنعة تفرجت عليها عياناً .

ومن هناك خرجت إلى قرية تسمى لانبا (LAMPA) وبعد يومين وصلت إليها ونظرت هناك الهنود يعمرون كنيسة جديدة وقسيسهم إسبنيولي له عندهم مقدار ثلاثين سنة . وهذا القسيس غني جداً فخرج (صرف) على عمارة تلك الكنيسة مايتي ألف غرش . ومكثت تلك الليلة هناك ، وثاني يوم رحت إلى معدن آخر يسمى بونو .

(30)

الوزير القاسي !

وصاحب المعدن بونو رجل غني اسمه دون خوسيف سلسيدو يعني يوسف من مدينة سيويليا وكان يعطي عشور الفضة إلى الملك مليونين وسبعماية ألف غرش ، وذكروا لنا أن هذا الرجل كان يخرج من هذا المعدن كل يوم ستة آلاف غرش . فحسده بعض أعدائه وأقاموا عليه بهتاناً وشهدوا زوراً ، قائلين أنّ هذا قد اتفق مع أناس بيض ويريد يصير حاكماً في هذه البلدة ، فكتبوا إلى الوزير عن ذلك . فقام الوزير وجاء إليه إلى جبل يسمى معادن بونا ، حيث كان سكن هذا الرجل المذكور ومسكه وأخذه معه إلى بلد ليما ، وشنق من أصحاب هذا الرجل بعض أناس وضبط أموالهم ، كما ضبط هذا المعدن للملك ، وضبط أيضاً الحجارة التي كانوا طالعوها من المعدن ليخرجوا فضتها وكان وزنها عشرة آلاف قنطار . وحبسه الوزير في السجن وألزموا عليه القتل ،

فطلب من الوزير قائلاً : اعرضوا أمري إلى إسبانية للملك فإن أمر بقتلي فاقتلوني وإن أمر بإعتاقي فأعتقوني وأنا أفي جميع ما قريت فيه وها أنا في حبسكم مضبوط . فلم يسمع الوزير والديوان لأقواله بل سجلوا عليه القتل من طمعهم وكانت الضيع والبلاد من الفقراء والرهبان والراهبات والأيتام والأرامل يستغيثون لله لأجل خلاصه لأنه كان في كل عام يفرق من الحسنة ثمانين ألف غرش . وأمر الوزير القاسي القلب بخنقه نصف الليل وبعد قتله أرسلوا معلمين ليذوبوا تلك الحجارة ويطالعوا منها الفضة فلما ألقوها في النار ظهرت إشارة الله وتحوّلت تلك الفضة إلى رماد وصار ذلك عظيماً للناظرين والسامعين . وأما المعدن الذي كان يخرج منه حجارة الفضة فطاف بالماء وغرق وعدموه . وصارت هذه أعجوبة ثانية . وأما الوزير الذي قتله ظلماً فبعد خمسة عشر يوماً بينما هو داخل إلى مخدعه تراءى له ذلك المقتول ظلماً ، كأنه واقف على الباب ، فلما نظره اعتراه الخوف والرجفة ودخل مرتعداً من ذلك المنظر ، فسألته أمرأته السبب فحكى لها ما نظر ، ثم وقع في الفراش مريضاً ، وبعد ستة أيام مات ، وصارت هذه أيضاً أعجوبة ثالثة أمام الحاضرين والسامعين . والقاضي الذي سجل قتله ، انشلّت بعد أيام قليلة ، يداه ورجلاه . وهذه صارت عجيبة رابعة . لأن هذا الرجل المقتول كان ذا خيرات وأنعام مثلما سبقنا في القول وخيراته لا توصف وكان أباً للأيتام والأرامل ، وشفوقاً على الفقراء والمساكين ، ومفتقداً الديورة بكل الصدقات والنذورة ، وكان ينقد البنات الفقيرات ويزوجهن ، ولم يزل طول عمره في عمل الخيرات ، حتى إنه في جمعة الآلام أرسل مع أخيه إلى بلد الكوسكو سبعين ألف غرش ليقسمها على الكنائس والفقراء .

فضائل القتيل

ولمّا كان هذا الرجل في الحياة قبلما يقتل بمدة قليلة أقبل رجل فقير ذو عيال كان قد رافقه في المركب لما جاء من إسبانية ، فعرفه عن أقنومه وعرض عليه حال فقره وكثرة عياله . فلما علم أن هذا كان رفيقه تحنن عليه وزعق (دعا) وكيل ماله وأعطاه مفاتيح الخزنة وقال له : خذ هذا الفقير إلى الخزينة واتركه يأخذ قدر ما يريد من

بارات الفضة ، فلما حصل ذلك المسكين في الخزينة أخذ اثني عشر بارة[81] وكل بارة تسوى ألف وثلاثماية غرش ، وأخرجها خارج المخزن وراح يستكثر بخير ذلك الغني ، فسأل الغني وكيل ماله قائلاً : كم بارة فضة أخذ هذا الفقير؟ فقال له : اثنتي عشرة . فرجع وقال للفقير : يامسكين لماذا لم تأخذ أزيد من هذا العدد . ثم إنه استكثر بخيره وانصرف . وله على هذا المثال عمل خيرات زائدة الوصف . وكان له أخ مختف ، فلما جاء وزير آخر ليحكم في ذلك البلد عرض على الملك أمر الرجل المقتول ظلماً . فصعب ذلك على الملك والديوان لأنه كان له نجم سعيد ينفع الفقراء والمساكين وخزينة الملك . فخرج أمر من الملك بالإنعام على أخيه المختفي ، وأن يعطيه الوزير خمسين ألف غرش من خزينة الملك ، وأمره أن يرجع يفتح معدن أخيه .

فأما أنا ما لحقت ذلك المقتول في أيام حياته ، لكن تصاحبت مع أخيه الذي يسمى دون كسبار دوسلسيدو . وهذا كان يجاهد مع مائة نفر ليفرغوا الماء من المعدن . وقال لي ذات يوم : يا صاحب لماذا تروح إلى إسبانية بالعَجَلِ اصبر هذه السنة حتى ننظف المعدن وأجهزك من الفضة بالذي يقسم الله . لكن أنا ما قدرت بسبب الوزير صاحبي المعزول الذي كان راجعاً إلى إسبانية وهذا صار السبب المانع .

(31)

سبك الفضة

أما نحن فبعد أن خرجنا من هذا المعدن قصدنا بلدة تسمى جكويت (CHUCHUITO) وكان الحاكم هناك ابن أخي كاتب الملك ، وكان رافقنا من إسبانية ، وهو يسمى دون اندريس ده برناجيا من بلاد بسكايا . ومن بعد أربعة أيام وصلنا إلى البلدة وفيها للملك بيت لسبك الفضة ، ومعلمون ووكلاء من جانبه لجمع الفضة التي تخرج من المعدن المحيطة بهذه البلدة . فهم يأتون بالفضة ويذيبونها ويسكبونها ويعملونها بارات ويدمغونها بختم الملك . وإن حمل أحد حمل فضة رملية ما دَخَلَتْ إلى بيت المسبك بضبط وتودع في بيت الملك .

---

(81) بارة ، كلمة فارسية بمعنى القطع ، ثم جاءت بمعنى الهدية . لعله أراد البارة من المال .

(32)
سهام الهنود ورصاص الإسبان

وعن جانب هذه البلدة يوجد بحيرة استدارتها ستون فرسخاً[82] وذكروا لنا أن الهنود ألقوا في هذه البحيرة جنزيراً من الذهب كان يخص الملك أنيكا المذكور لما قتله السبنيولية ، وذلك الجنزير كان يحمله أربعة ألاف رجل . وعندما كان يعمل الملك لعباً كانوا يمدون هذا الجنزير على الأرض فيحيط بالبلد فكان يدخل الأكابر ويلعبون ومن يقع منهم على الجنزير أو خارجاً عنه كانوا يضحكون عليه . والآن لا يعلم السبنيولية في أي جانب من البحيرة ألقوه .

ولم يكن لهؤلاء الهنود في ذلك الزمان دنانير ، لكن كانوا يتعاملون ويبدلون شيئاً بشيء .

وكان في هذه البحيرة جزيرة كبرها فرسخان يسكنها هنود كفرة يعبدون جبلاً منصوباً أمامهم يسمى الجبل الأحمر وما كان يقدر أحد يجوز إليهم لأن عندهم آلة الحرب كرماح وسهام ومقاليع . وكانوا يخرجون إلى البر السالك ويأسرون السبنيولية ويأخذون البغال الذكورة ليذبحوها ويأكلوها . فأمر هذا الوزير المذكور صاحبي أن يجتمع حكام القرى الذين في تلك النواحي . فاجتمعوا مقدار أربعة آلاف نفس ، وعملوا أربعين كلكاً وجعلوا فيهم أكياساً مملوءة تراباً ، وأيضاً بعض أفراس ثم أخذوا في أيديهم الأسلحة وجازوا في البحيرة على الكلك ، فلما اقتربوا من الأرض وقف هنود الجزيرة مقابلهم للحرب ، وكانوا يرشقونهم بالسهام ، والجنود السبنيولية يضربونهم بالرصاص ، وألقوا أكياس التراب على ساحل الجزيرة لتقدر الخيل تخرج إلى البر ، لأن هناك وحلاً شديداً . فلما وصلوا إلى الأرض ركبوا خيلهم وركب أيضاً الفرسان ، واجتمعوا على الهنود وكسروهم وقتلوا منهم كثيراً واستأسروا الباقي وعددهم ثلاثمائة هندي غير النساء والأطفال . وقد مات في الحرب منهم ستمائة نفس . ثم أخرجوهم من تلك الجزيرة وأتوا بهم إلى بلد الكوسكو . فطلب الوزير من

---

(82) تسمى هذه البحيرة تيتيكاكا (Titicaca).

أسقف البلد أن يلقنوا هؤلاء الهنود ويعلموهم قواعد إيمان المسيح ويعمدوهم ويقسموهم على البلاد . أما أنا فبقيت في هذا البلد ثمانية أيام .

(33)

إطلاق سبيل بعض المسجونين
معدن مرمر

ثم خرجت قاصداً قرية تبعد يومين تسمى كومانا فيها دير لرهبان مار أغسطينوس وفيه أيقونة سيدتنا مريم العذراء تسمى كوياكاوانا تعمل معجزات عظيمة ، يأتون إليها من كل جانب ليزوروها . فرحت تباركت من تلك الملكة الجليلة وزرتها . ومن هناك خرجت قاصداً قرية تسمى بارنيكيلا وكان . فتبعني أربعة لصوص ليسرقوا خيلي وبغالي فأعمت هذه العذراء بصائرهم فما قدَّرهم الله على قصدهم . وكان حاكم تلك القرية صديقي اسمه دون ايليا باسمي فخرج لاستقبالي مع بعض قسوس وعوام وأخذوني إلى بيته . فثاني يوم جاء قسيس الهنود عندي وحكى لي قائلاً : إن في حبس هذا الحاكم سبعة رجال هنود محبوسين على شيء قليل ، فقمت نزلت إلى الحبس وفي يدي ورقة كتبت عليها أساميهم ، وناديت الحبّاس أن يفتح الباب ففتحه وناديتهم واحداً واحداً إلى خارج الحبس وأعتقتهم . وفيما بعد سمع الحاكم بما صار فقال لي : يكون فدى رأسك وشرفتنا بقدومك .

وقرب هذه القرية بنصف فرسخ جبل عال به معدن حجر مرمر كالبلور ، فقصد هذا الحاكم أن يعمل من هذا المرمر عمارة حمام كمثل قبة صغيرة مركبة من هذه الحجارة يجعلونها في صناديق ويرسلونها إلى ملك إسبانية ، لكنه توفي قبل ما يكمل عمله .

(34)

خابيتان مملوءتان دماً !

وبعد ثمانية أيام خرجت من هذه البلدة المذكورة قاصداً بلداً يسمى سيكاسيك

(SICASICA)وفي ذلك الصقع كان يحكم أحد غلمان الوزير صاحبي ، وكنت ديَّنته ألفي غرش في بلد ليما ، فخرج لاستقبالي وكان في جانب الدرب بحيرة قدرها نصف فرسخ ، وبقينا نتصيد منها بعض أجناس الطيور إلى بعد العصر . ثم إننا دخلنا إلى البلدة المذكورة بغاية الإكرام ، ونزلنا في دار الحاكم ، وجاء جميع الكهنة والعوام لزيارتي . وسكان هذه البلدة هنود وإسبنيولية . وذكروا لنا عن قسيس كان في تلك البلدة ، وكان قد مات منذ أربع سنين . فهذا القسيس كان خورياً متفرداً في معبد تلك البلدة مدة اثنتين وعشرين سنة ، وكان قد جمع له أموالاً كثيرة من الظلم . فقبل مماته اعترف إلى الكاهن وعمل وصيته قائلاً أنه طمر تحت فرشته خابيتين مملوءتين الواحدة فضة والأخرى ذهباً . وأيضاً عمل وصيته على يد القاضي أن هذا المال يكون ميراثاً لأخيه وأخته . وأنا كنت أعرف أخاه وهو قسيس يسمى دون خوزيف يعني يوسف وأخته تسمى دونيا اينيس . فبعد أن مات أخرجوه من البيت وسكروا الباب وختموه . فبعدما دفنوه أتى أصحاب الشرع والحكام ليخرجوا المال المذكور . فلما حفروا المكان وجدوا الخابيتين مملوءتين دماً لا يوجد فيهما ولا دينار واحد . فكل الذين كانوا حاضرين تعجبوا من هذه العجيبة ، لأن عدالة الله ظهرت هكذا في المال المجموع ظلماً . فلما علم بذلك مطران البلد أرسل يوصيهم أن يستروا ويخفوا هذا المثل الردي . لكن صار له اهتمام عظيم عند الناس .

(35)
هندي لا يريد أن يتكلم بالإسبنيولية

وأنا بعد ثمانية أيام خرجت متوجهاً إلى بلدة تسمى أورورو (Oruru) وسافرنا في طريق عسر تعب زائد . ومن بعد خمسة أيام وصلنا إلى البلد وخرج لاستقبالنا الرهبان اليسوعية وأنزلونا عندهم . كان حاكم البلد يسمى دون الونصو ديل كورال وهو رجل خسيس ما كان يأكل إلا كروش البقر . وخارجاً عن هذه البلاد ثلاثة فراسخ يوجد معدن فضة غني جداً لأن هذه الفضة يستخرجونها من غير زيبق وذلك هو ضد القانون في جميع المعادن ، ولا يوجد أصلح من هذه الفضة . ثم إني رحت إلى المعدن

المذكور واشتريت من الفضة الرملية مقدار خمسمائة غرش . وبعد ثمانية أيام سافرت قاصداً بلد بوتوسي (Potosi) وبتنا أول مرحلة في قرية هنود ، وكان عندي أمر أن يعطوني بغالاً من قرية إلى قرية وكنت أغرم الكروة مثلما يغرم الملك ، فناديت شيخ الهنود أن يحضر لي دواباً وناولته الكراء ، بشرط أن يحضر لي الدواب بعد نصف الليل بساعة وحان الوقت وأشرق الصبح وطلع النهار وما أحضر الدواب لنرحل . فأرسلت أفتش عليه فأتوني به سكراناً ، فكنت أكلمه باللسان السبنيولي وهو يجاوبني باللسان الهندي . فأمرت أن يشدوه بعمود البيت ويجلدوه . فمن أول ضربة السياط طلب أن يتركوه وتكلم بالسبنيولي قائلاً : إن الدواب مربوطة عنده في الدار . فسألته لماذا ما تكلم في السبنيولي إلى وقت ما ذاق السياط . فقال لي : نحن معشر الهنود لا نطاوع السبنيولية إن لم يضربونا .

ثم رحت من هناك ووصلت إلى مكان يخرج منه ماء سخن ورائحة ماء الكبريت ، ويأتي بعض المرضى من أماكن مختلفة ليغتسلوا فيه . وبعد اغتسالهم يشفَون من دائهم . واسم هذا المكان طارابابا . ومن بعد ستة أيام وصلنا إلى بلدة برتوسي المذكورة فجاء الحاكم خارجاً عن البلد نحو ميل مع عشرة رجال من جماعته واستقبلني بغاية الإكرام . وهذا الحاكم هو من أقرباء امرأة الوزير أوصاه بي في مكاتيبه . نزلت في دير اليسوعية وجاء بعض أناس زاروني وأنا ، أيضاً ، رحت زرتهم .

(36)
زيارة السكتخانة

ثم في ذات يوم رحت إلى البيت الذي يضربون فيه سكة الدنانير من غروش وأنصاف وأرباع . وفي هذا البيت السكتخانة أربعون عبداً يشتغلون واثنا عشر رجلاً إسبنيولياً فرأينا الغروش مكومة مثل التل في جانب ، والأنصاف في جانب ، وأنصاف الأرباع في جانب ، مكومة على الأرض ويدوسونها بأرجلهم ، مثل ما يدوسون التراب الذي لا قيمة له .

وعن جانب هذه البلدة يوجد جبل المعدن ، وهذا الجبل معروف في كل الدنيا

لزيادة غناه ، لأن قد أخرجوا منه أموالاً لا يحصى عددها منذ مائة وأربعين عاماً من أربعة أطرافه ، وقد أحاطوه وحفروه وانحدروا إلى أسفله ليخرجوا الفضة . وقد جعلوا لهذا الجبل عواميد من خشب سنداً من كل جانب لئلا يسقط الجبل ، لأنه من خارج يبان صحيحاً لكنه فارغ من داخل . ويشتغل في باطنه في قطع الحجارة مقدار سبعمائة هندي لأناس اشتروا لهم حصة من الملك لأن لكل معدنجي بعضُ هنودٍ معيَّنين ليشتغلوا في معدنه . وفي أمر الملك مرسوم أن يعطوا من كل قرى الهنود رجالاً لقطع المعادن ، والقانون هو من كل خمسة رجال يطلع واحد للشغل المذكور ، إذا لم يرض حكام القرى إرسالهم فالوزير يجرمهم ويعزلهم . ولما يجيء هؤلاء الهنود إلى بلد بوتوسي يقسمهم الحاكم على المعادن .

(37)
وصف استخراج الفضة

وفي هذه البلدة سبعة وثلاثون طاحوناً يطحنون فيها حجارة الفضة ليلاً ونهاراً ما عدا أيام الآحاد والأعياد . وبعدما يطحنون الحجارة ناعماً يأخذون ذلك التراب مقدار خمسين قنطاراً ، ويجعلونه كومة ثم يجبلونه بالماء ويحركونه بالجارف عدة مرات ، وإن طلب زيبقاً أزيد فيطعمونه حتى يكمل . فإن كانت طبيعته باردة فيخلطون فيه نحاساً حتى يسخن ، وإن كانت طبيعته سخنة فيضيفون إليه الرصاص حتى يبرد . والواسطة التي بها يفرقون هل هو سخن أم بارد ، هو أنهم يأخذون منه في شقف فخار ويغسلونه بالماء حتى يروح الطين فتبقى الفضة والزيبق فيملسه (يدلكه) بإصبعه على شقف الفخار المذكور فإذا تفرفط (تفرط) فهو سخن ، وإذا انطلس (لصق) فهو بارد ، وإذا كان مطبوخاً ومعتدلاً كاملاً فيجيء ممتداً على الفخار ومبرقاً . ثم يجعلونه في حوض ماء والماء جار عليه يحركونه بالماء بصنعة . فالفضة مع الزيبق يرسخان إلى أسفل ، والتراب يأخذه الماء إلى خارج . فلما يكملون غسل تلك الجبلة كلها يسدُّون ويقطعون الماء الفائض عليه وينظفون الحوض من الماء ويستخرجون تلك الفضة والزيبق الراكنين جميعاً ، ثم يجعلونه في أكياس من جنفاص يعلقونها ، وتحت هذه

الأكياس صناديق مجلدة من جلود البقر ، فيهرب الزيبق من الأكياس ويقع في تلك الصناديق الجلدة ، وتبقى الفضة خالصة فقط في الأكياس مثل قوالب رؤوس السكر . وجميع هذه البضايع اللازمة لعمل استخراج الفضة تدور دواليبها بالماء مثل الطواحين وغيرها .

وأنا كان لي رجل صديق صاحب معدن ، فحكى لي عن والده قائلاً إنه كان لوالده معدن في هذا الجبل لكن كان قليل الفضة ، فأمر الفَعَلَةَ الهنود أن يردموه ويسدوه بتلك الحجارة التي أخرجوها منه . ففعلوا كما أمرهم ، وسدوه وبدأوا يشتغلون في غير جانب . فمن بعد سبع وثلاثين سنه راح صاحبي هذا المذكور وفتح ذلك المعدن فوجد تلك الحجارة التي كانت غير نافعة قد تحولت وتبدلت في تلك الأيام واستوت كالثمرة ، فأخرجوها وأخذوا فضتها ، فأعطت كل واحد ثلاثين ، لأن أقليم هذا الجبل الفضة مسلط عليه نجم يسمى عطارد وهذا النجم يطبخ الفضة(83) .

ورأيت في هذه البلدة أربعة رجال أغنياء جداً ، هؤلاء هم الذين يشغلون السكتخانه لقطع الدنانير . وكل جمعة يشغل أَحدهم الكَرَخانة ، ويقطع في الجمعة مائتي ألف غرش وأزيد ، لأنهم يشترون الفضة من أصحاب المعادن ويقطعونها غروشاً . وهم يشترون الفضة الوزنة التي هي ماية مثقال باثني عشر غرشاً ونصف ، فلما يسكُونها ، تصير ستة عشر غرشاً ، ويعطون كل سنة من هذه المعادن عشوراً للملك مليونين ونصف . وخارج هذا البلدة بحيرة ماء ذكروا أن في بعض السنين طافت على البلدة وهدمت بيوتاً كثيرة ، لكن الناس سلموا . وأنا بقيت في هذه البلدة خمسة وأربعين يوماً .

---

(83) هذا من الخرافات القديمة .

(38)

حنا الموصلي طبيباً!

وخرجت من هناك متوجهاً إلى بلدة تسمى جوكز . وفي اللسان الهندي تسمى جوكيساكا[84] . فأول يوم وصلنا إلى مكان فيه حمامات ماء سخن خلقة (بطبيعته) يخرج من الأرض يسميه السبنيولية لوس بانيوس كالينتوس (Los Calientes Bagnos) فبتّ هناك تلك الليلة . وثاني يوم وصلت إلى البلدة المذكورة ، فخرج اليسوعية خارج البلد لاستقبالي ، وأخذوني إلى ديرهم . وفي هذه البلدة يوجد ديوان الملك ومدير البلاد . لكنهم تحت يد وزير ليما . وفيها مطران له معبور في كل سنة ماية وعشرين ألف غرش ، وهذا كان سابقاً أسقفاً على بلدة أكوماناكا المذكورة وكان قد أهدانا هدية في أسقفيته ، وبعد ذلك أنعم الملك عليه وأعطاه هذه المطرانية . فثاني يوم رحت قابلته فأكرمني إكراماً زايداً . وأما رئيس ديوان البلد فهو رجل كاهن ، وكان صاحبي فأكرمني أيضاً بواسطة الوزير صاحبي ، لأنه كان صديقه وكان يسمى دون برتلماوس ده باويدا . فأرسل من قبله رجلاً ليزورني . وجاء أيضاً من جانب المطران قسيسان زاراني ، وبعد ثمانية أيام طلع برفقتي راهبان من دير اليسوعية فزرت الذين زاروني من القسوس والرهبان والعوام .

وبعد اثني عشر يوماً طلب مني المطران أن أقدس في الكنيسة الكبيرة يوم عيد الرسل وكان عندي آلة القداس يعني البدلة وغير أشياء كان أنعم عليّ بها البابا اكليمنضوس التاسع ، ومن بعد ذلك عزمني (دعاني) رئيس ديوان الملك لأقدس في كنيسة الديوان التي هي في سرايته ، وأهداني هدية أزيد من هدية المطران . ومن بعد ذلك كان رؤساء الديورة يدعونني أن أقدس في كنائسهم وفي ديورة الراهبات . وكان لي هناك رجل صديق من أهل الديوان يسمى دون خوان كونصالس ، وهذا رافقني من إسبانية . ففي ذلك الوقت جاء أمر من الملك إلى هذا الرجل المبارك أن يروح إلى ليما ويأخذ محاسبة من الوزير المعزول الذي هو صاحبي .

---

(84) وتسمى الآن لاباز (La Paz) .

وكان لأحد الرهبان اليسوعية أخت مريضة فطلب مني أن أروح أزورها وإن كنت أعلم بشيء من أحوال الطب فأحكمها . فرحت زرتها وعالجتها ببعض أجزاء مناسبة لعلتها وسقيتها درهماً من رماد العقاريق[85] فبقدرة الله تعالى تعافت . وكانت ، أيضاً ، راهبة أخرى في الدير مريضة فأرسل إلي المطران دستوراً حتى أعبر أعالجها لأن بغير إجازة لا يقدر أن يجتاز باب الدير ، فدخلت الدير وعالجتُ الراهبة ، فبحكمة الله وعنايته طابت وتعافت . فصار غوشة (حركة) عظيمة في البلد . وكانوا يريدون أن أسكن عندهم في البلد فأرادوا أن يعطوني علوف خمسمائة غرش في السنة فقلت لهم ليس هذا ممكناً .

(39)
هنود يعتصمون بالجبال

وكان في الدير راهب يسوعي وكيل متصرف على بلاد تسمى توكمان[86] ولهم

---

(85) العقاريق ، جمع عقروق . لفظة سريانية معناها الضفادع .

(86) يُريد مقاطعة توكومان وبونس ايرس التي كانت تدعى رسالة الباراغواي الشهيرة في تاريخ العالم الجديد . وهناك جمع المرسلون اليسوعيون عدداً من الهنود المتوحشين ففكوا رقابهم من أسر الرق واكتسبوهم إلى الإنسانية بعد أن كانوا يعيشون عيشة البهائم فهذبوا عقولهم وأدبوا معيشتهم وعلموهم مبادئ الحضارة والاهتمام بحاجات الحياة من حرث وزرع وحصد والارتداء بالثياب ودربوهم على المعارف والفنون اليدوية وغيرها فأصبحت هيأة اجتماعية قائمة بذاتها كاملة الأعضاء سعيدة المعيشة لا يعرف لها مثيل في الآداب العمومية والفردية (يبدو هذا الوصف جائراً إذا ما قيس بمشاهدات الرحالة والقسس والجنود الأوروبيون أنفسهم الذين عاصروا الغزو ودوّنوا الوقائع . فالحقيقة أن السكان الأصليين كانت لديهم تنظيماتهم الاقتصادية والاجتماعية المركبة والمعقدة ، وحضاراتهم المميّزة القائمة على بناء هرمي وضعت فيه مئات الدراسات الكاشفة لاسيما في القرن العشرين حيث نشطت البعثات الأثرية في استكمال الكشف عن تاريخ هذه الشعوب التي تعرّضت للاضطهاد والإخضاع والإبادة - المحرر) . قال موراتوري : هذه هي المسيحية السعيدة بالحقيقة .==

هناك ديورة . وأسقف تلك البلد كان صاحبي ورفيقي من إسبانية ، فطلب مني الراهب أن أروح إلى تلك البلاد وهي بعيدة خمسمائة فرسخ عن بلد جوكز . ويروح في هذا الدرب كلكات البر ، وينصبون لهم أقلاع فالريح يوديهم . ووعدني إن طاوعته ورحت معه وجبرت في خاطره يعطيني ألف بغل . لأن المواشي في تلك البلاد شيء كثير وعديمة القيمة في الجبال ، وهي وحشية . لكن امتنعت عن الرواح معه بسبب طول المسافة . وأيضاً في تلك الجبال يوجد هنود كفرة ولخوفي منهم قصرت عن الرواح . وهذا الإقليم واسع جداً . وهو أكبر من الثلاثة الأقاليم الأخرى غني بمعادن الفضة والذهب والجواهر . لكن سكانه قليلون وفيه ناحية تسمى سانتافه(Santa fe) ومن هناك يخرج الزمرُّد . وهذه الأسقفية لها أرض خمسمائة فرسخ . وعن جانب هذه البلدة يوجد كورة ، وهي أسكلة بوناس ايرس (Buenos Aires) وهذه البلدة هي على البحر المحيط قريبة من بلاد البرازيل التي من حكم البورتكيز . وفي هذه البلدة بوناس ايرس المذكورة يزرعون حشيشاً يسمى إيربا ديال بايل كواي وجميع المتولدين في تلك البلاد يشربون من ذلك الحشيش المذكور مغلياً مع سكر بماء سخن . فإذا شرب الإنسان منهم فنجاناً واحداً ينفعه وإذا أراد أن يتقيأ يشرب منه أكثر فيدلق جميع ما عنده من العفونات . وهذا سالك بين جميع الناس في تلك البلاد كمثل القهوة في بلادنا .

== وقال بوفون (Hist .Nat. T.XX): لا شيء أشرف للدين مّما توصّل اليه المرسلون اليسوعيون بتفانيهم فمدنوا أمماً متوحشة وأسسوا هيأة اجتماعية كاملة ولم يكن سلاحهم إلا الفضيلة . وقال روبرتسون البروتستنتي : (Hist. Charles V .T .I) قد بيَّن اليسوعيون قدرتهم على الخير بنوع ما في العالم الجديد . فإن فاتحي هذه البلاد كانت رغبتهم في المكسب والنهب والاستيلاء والفتك ، ولم تكن غاية مرسلي الباراغواي إلا الإنسانية . وقال أخيراً فولتير. Essai sur les moers): X p. 56) إن تأسيس رسالة الباراغواي بواسطة اليسوعيين يبين بنوع ما أسمى درجات الإنسانيَّة (تعليق رباط وما اقتطفه من المفكرين الغربيين يخالف الوقائع تماماً ، فقد شكل نشاط الإرساليات في تنصير السكان الأصليين للقارّة عملاً مكمّلاً للغزو الاستعماري وللنهب ، ولولاه لما تمكن الغزاة من الهيمنة على القارّة – المحرر)

وعن يمين هذه البلدة جوكز المذكورة يوجد بلد يسمى ميسكي (Misque) ويسكنها هنود مع إسبنيول وفيها حاكم وأسقف . ومنها ينحدرون سائرين في البحر مقدار خمسماية فرسخ ، ثم يصلون إلى أرض تسمى جبله وجلويه وولدبويه . وفي هذه البلدة جبله أسقف وديوان الملك وحاكم يسمى جنيرال ، وهم دائماً في حرب مع الهنود والكفرة لأن هؤلاء الهنود من قبل ما كانوا يعلمون أحوال الحرب ، لكن بعدما تعاشروا مع السبنيولية تعلّموا مثلهم . وما كان لهم أولاً خيل ولا كانوا يعرفون ركوبها . فالآن صاروا يركبون الخيل برماح شبه العرب ، ويتحاربون مع السبنيولية دائماً ، وإذا مسكوا أحداً منهم يشوونه ويأكلون لحمه . وأما الرأس فيطلعون جمجمته ويعملونها طاسة ويشربون بها نبيذاً من نبيذ بلادهم ، وهؤلاء عصاة وشديدون وقساة القلب ، وهم مضادون للسبنيول وصيةً من آبائهم وأجدادهم ، إلا البعض منهم كانوا هربوا من هذه البلاد من زمان الفتوح لما قتل ملوكهم وسكنوا في جبال عالية وعاصية .

فمن بعد خمسة وأربعين يوماً خرجت من هذه البلدة (جبله) صحبة القاضي دون خوان المرقوم ليروح يأخذ المحاسبة من الوزير صاحبي المعزول من ليما ثم رجعت إلى بوتوسي المذكورة . ولما كنت في بلد جوكز كان عندي صورة رأس ووجه المسيح كنت قد جبتها (أحضرتها) معي من رومية ، فأهديتها إلى راهب يسوعي . فلما وصلت إلى بلد بوتوسي وفتحت الصندوق وجدتها عندي في الصندوق ، فبقيت متحيراً مع خدّامي ورفقائي من هذه العجيبة فلما سمع رئيس دير رهبان المرسه التي تأويلها رهبنة مريم الموهبة ، طلب مني هذه الصورة فأهديته إياها ، على ظني أنها ترجع ثاني مرة ، فما رجعت .

(40)
الوزير المعزول

فالآن نرجع نتكلم عن الوزير الذي في ليما صاحبي الذي عزلوه بغير ذنب ، وجاء أمر من الملك إلى المطران الذي في ليما ليحكم مكانه إلى أن يجيء حاكم أم وزير

آخر . وهذا الوزير المعزول كان سعى في هذا المطران حتى عمله مطران ليما . ولما انعزل صار المطران عدواً له كبيراً . وأما سبب عزل الوزير فهو أن تجّار الهند كانوا كتبوا ضده إلى الملك وإلى أخي الملك دون خوان أوستريا افتراءً بغير حق .

فبعد وصول المعارض من الهند إلى إسبانية حصلت في يد أخي الملك الذي كان عدواً كبيراً للوزير بسبب أن أخا الوزير كان من طرف الملكة ، فأرسل عزله . وأنا خرجت من بوتوسي صحبة ذلك الرجل الذي راح ليطلب المحاسبة من الوزير فوصلنا إلى بلدة تسمى أوكيبا قريبة من البحر الأزرق . وقبل دخولنا بليلة في نصف الليل تاهت البغال ، فنمنا تلك الليلة في شدة عظيمة ، لأن كان معي حمل فضة رملية ، فشكرنا الله عند الصباح وجدناها لأن في تلك الأرض ما يوجد حرامية .

المظلومون

وثاني يوم دخلنا إلى البلدة المذكورة . فتلاقيت مع الأسقف المذكور الذي كان في باناما وأنا حامل عكازته وخلصتني من الغرق في تابوكا . فترحب بي واستقبلني كأخ له بعز وإكرام فهناك حكوا لي عن هندي له معدن قوي غني وما اكتشف عليه السبنيولية ، فكان يروح هو وابنه إلى المعدن سرّاً في الليل ، ويقطعان حجارة الفضة ، ويأتيان بها إلى داره ويصفّيانها بالنار ، فلما حكوا لي أنه أعطى حسنة قدّاس أربعين ألف غرش أرسلت وراه ودعوته عندي وقلت له : أخبرني لأجل أي سبب لم تكشف هذا المعدن للملك ، حتى ينعم عليك وعلى أولاد أولادك من فرايض ومراتب الحكم في هذه البلدة ؟ فأجابني قائلاً : رأيت هنوداً أقدم مني كشفوا حالهم للسبنيولية وماتوا أخيراً تحت العذابات . هذا هو السبب . فأنا صدقت كلامه من جهة الظلم الذي نظرتهم يعملونه على الهنود .

ومكثنا في تلك البلدة عشرة أيام إلى وقت ما حصل لنا مركب . ثم سافرنا في البحر ثمانية أيام حتى انتهينا إلى ميناء ليما التي تسمى الكليا El-Callao وهي تبعد عن البلد فرسخين . والفضّة الرملية التي كانت معي لو تكون بيد غيري لكانوا أخذوها للملك ، لكن ما أرادوا أن يفتحوا أحمالي . ثم دخلنا إلى بلد ليما في عربانة صاحبي رئيس ديوان الإيمان (التفتيش) . وهذا رفيقي نزل في مكان آخر . وأما المطران

الموكل على الحكم ضادد هذا القاضي الذي جاء يأخذ المحاسبة وحبسه في داره قائلاً : أولا تنفي الوزير إلى مكان بعيد مقدار مايتين فرسخ وبعد ذلك تسمع الشكاوات ودعاوى الناس . فأحضروا الوزير وعرضوا عليه أمر النفي فطاع لأن قوانين إسبانية لما يعزل حاكم ينفونه إلى فرسخين ، لكن هذا الوزير عدوه دون خوان ، مثلما ذكرنا ، سابقاً فأمر بنفيه إلى مايتي فرسخ ، فطاع أمر الملك وخرج متوجهاً إلى مكان النفي المرسوم الذي يسمى بايتا ، وهي أرض حامية يحضرون إليها ماء الشرب من بعد فرسخين . وبقيت امرأته وخدامها خارج ليما فرسخين ، بسبب أنهم كانوا قليلي العافية . وأنا طلعت في رفقة الوزير مع بعض أصحاب لنودعه إلى ميناء الكليا . وهذا الرجل كانت أمانته زائدة في العذراء فقال : ولو سقوني السم ما يضرني بقوة الإله ووالدته القديسة الطاهرة مريم . فخرج مركبه مسافراً ونحن رجعنا إلى البلد .

المطران المنتقم

فدخلت عند مطران البلد وتكلمت معه وقلت له : كيف يحل من الله أن تنفي هذا المسكين إلى ذلك المكان البعيد وهو رجل ضعيف لأن الحكماء قالوا أن الذي يروح إلى تلك البلاد السخنة يموت . فالسيد المسيح أمرنا في أفعال الرحمة أننا نفتقد المرضى ونزورهم ، ولا نطردهم وننفيهم إلى مكان بعيد حيث خطر الموت . فأجابني قائلاً : أنا مغتاظ على امرأته لأنها شتمتني لأجل ذلك أردت أنتقم منها في نفي زوجها إلى ذلك المكان . وكان الوزير لما ودعته أمرني أن أدير بالي على بيته وعلى امرأته لخوفه من الأعداء أن يسقوها سماً وأنا بقيت سنة وشهرين مهتماً بعائلته .

فأرسل المطران إلى القاضي أن لا يحاسب الرجل إلى وقت ما يعطيه دستوراً . فبقي في هذا الحال مقدار سبعة أشهر متعطلاً . فمن بعد ذلك أعطاه دستوراً وجعل الموعد ثلاثة أشهر . ففي جمعة الآلام عجَّل القاضي في إنهاء هذه الدعوى وسجل الدفاتر وختمها وأرسل لَصَقَ في حيطان الأزقة أوراقاً بأن الوزير المعزول تقرر أن ليس عليه ذنب ولا إثبات بعلة من العلل بل خالص من جميع المصاريف والزلل . فلما سمع المطران حزن وخزق ثيابه من ألمه . حينئذ رجع الوزير من النفي إلى بلدة ليما . فخرج لملاقاته من البلدة جميع الأعيان والأشراف ورافقوه إلى القرية حيث كانت

امرأته ، وصار فرح عظيم عند الأعيان وعند الهنود لسبب رجوعه سالماً . ومنحه الله بعد رجوعه ولداً ذكراً سماه فردينندوا ديلا كورا كونده كستيليا ومركيز دي ماراكون .

(41)
صداقة السائح للمظلوم

ولما كان الوزير منفياً أرسل المطران استدعاني وقال لي : لأي سبب أنت مرتبط وملتصق بهذا الرجل ؟ تعال إلي واتركه وأنا أسكنك عندي وأساعدك في جميع مصالحك بكل ما تعتاز . فقلت له : كيف يمكن أن أترك صديقي القديم وأعدم صحبته لاسيما مثل هذا الرجل الصالح وبالأكثر الآن بسبب أنه معزول والله أوصانا بإعانة الضعفاء وإقامة الساقطين لأن الإنسان الذي يكون ولد حلال ويعرف أصله وشرف جنسه لايترك صديقه الأول عند عزلته بل يساعده ويسليه في كربه وضيقته . وأنا واقف أيضاً في خدمتك ومحبتك ومثل ما أنا صديقه أنا أيضاً صديقك . فقال لي : اصنع ماتريد . فبعد مدة شهرين أرسل المطران يدعوني فعندما دخلت البلد رحت عند صاحبي رئيس ديوان الإيمان وحكيت له فقال لي : اذهب إليه وكلمه بكل ما في خاطرك فرحت إليه وتكلمت معه فقال لي : لأي سبب ما تروح إلى بلادك ؟ فقلت له : إذا أردت الرواح إلى بلادي لا مانع يقدر يمنعني والآن ما لي نية أن أسافر من هاهنا . فقال لي : إن أمرك والرخصة الممنوحة لك لأربع سنين وهاهي قد كملت . فقلت له : نعم هكذا هو لكن أنا ما أريد أسافر وأفترق عن الوزير وأنت اصنع ما تشا وتريد . فقال لي : لأي سبب تحب هذا الرجل وتحامي له وأنا ما تحبني مثله ؟ فقلت له : نعم إن في بلادنا وعوائدنا يحامون عن الإنسان الواقع ويساعدونه ونكمل وصايا الله الذي أوصانا قائلاً حب قريبك كنفسك . فأنا أحب الوزير وأحبك وأحب قريبي . ثم قام من كرسيه وجاء احتضنني قائلاً : الله يبارك عليك لأنك ابن ناس أشراف ودمك وأفعالك تشهد عليك . فرجعت عند صاحبي رئيس ديوان الإيمان وحكيت له ما جرى ففرح وفرحت أيضاً امرأة الوزير وقالت : الله تعالى يرحم والديك الذين خلفوك ويزيد أصلك .

(42)

الدجاجة بغرش ونصف والغنمة بخمسة غروش !

ثم إني في تلك الأيام انسحبت إلى قرية خارجاً عن البلد بنصف فرسخ تسمى مادلينا لأنه كان هناك بيت جميل وبستان لصاحبي رئيس ديوان الإيمان (التفتيش) فسكنت هناك خمسة أشهر وأنا مستنظر مراكب إسبانية . وكنت أيضاً في ذلك الزمان أكتب تواريخ سفري . فلما وصلت المراكب جاء معهم وزير جديد . وصار لي في هذه البلاد ست سنوات لسبب صاحبي الوزير المعزول لأنه كان وعدني أنه يقضي لي أشغالي عندما يرجع الحكم إلى يده فلما نظرت أن وزيراً جديداً قدم قطعت أملي . فلما وصلت مراكب إسبانية إلى بورتو بلو ورست هناك أمر مطران ليما الذي كان يومئذ متولياً وحاكماً على المراكب التي تخص الملك أن يحمل تجار ليما الخزنة على المراكب التي تخصُّ الملك وينحدروا إلى بورتو بلو ويحضروا الموسم ، لأن قوانين تلك البلاد أن لما تصل الغلايين من إسبانية إلى بورتو بلو وتنحدر المراكب إلى باناما فينقلون الفضة من باناما إلى بورتو بلو على مقدار ألف بغل ولا يزالون ينقلونها مدة شهر . والبعد هو ثمانية عشر فرسخاً . وفي نصف الدرب يوجد نهر صغير(Chagre) يقطعونه بشختورات يسمونها كتاوس (Chatas) موسوقة إلى بورتو بلو ويصير الموسم حينئذ مدة أربعين يوماً لا غير ، وينهون في هذا الزمان كل البيع والشراء .

فلنرجع إلى قولنا . فخرجت مع الوزير المعزول ، وخرج كل الأشراف والأعيان ليودِّعوه وكان معنا تجار ذاهبون إلى الموسم وصار ذلك اليوم عظيماً بضرب المدافع والحرّاقات ، وذلك يوم الأحد في واحد وعشرين من شهر أيلول سنة 1681 فخرجنا من هذا الميناء المسمى الكلياو (El Callao) قاصدين ميناء باناما ومن الكلياو وصلنا في خمسة أيام إلى ميناء يسمى يابتاف (Amotape) واشترينا كل ما نحتاز إليه من الزوادة ، فهناك الدجاجة تسوى غرشاً ونصف والغنمة تسوى خمسة غروش . ثم بعد يومين سافرنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مكان في البحر يسمى المورتوخاده (Amor-tajada) يعني المحنط لسبب أن هناك البحر قليل العمق ، وينحدر الماء ويسوق المراكب

على انحراف . لكن الرب نجانا بواسطة والدته الشفيعة مريم العذراء ، لأن صار علينا ضباب وهمدت الريح وكانت أمواج البحر التي تسمى كورنته (Corriente) تزعجنا وتدفعنا للأرض حتى تأملنا ونظرنا أننا صرنا قريبين للكهف(87) . فطار عقلُنا وقمنا عموماً انتصبنا للصلاة ، والكاهن يبارك ويحلّ ، لأننا أشرفنا على الموت ونحن نتضرع بتخشع لله ولوالدته مريم العذراء . فبعد أن أكملنا الصلاة هبت ريح من قلب الجبل مثل منفاخ ودفعت مركبنا إلى البحر ، فتخلصنا من ذلك الشر والخطر العظيم . والمراكب اللاحقة وراءنا من بعد ، لأن الهواء كان هامداً والبحر جامداً ، لما رأونا قادمين إليهم بالهواء تعجبوا جداً . ورافقتنا هذه الريح إلى عصر اليوم الثاني فدخلنا إلى ميناء يسمى سانتا إلينا يعني قديسة هيلانة (S. Helena) حيث مكثنا أحد عشر يوماً ننتظر المركب القادم من بلد غواياكيل .

بلاد ينكي دنيا

وهذا المركب المدعو مركب الذهب كان محملاً اثني عشر مليونا ، فلما وصل إلينا الجنيرال أمرنا بالخروج من هذه الأسكلة ، فخرجنا قاصدين باناما فدخلنا إليها بالخير والسلامة ، بعد خروجنا من ليما باثنين وأربعين يوماً . وهنا وجدنا مركبين فيهما جنود إسبنيولية جاءوا من ينكي دنيا ليفتشوا على قرصان البحر يعني اللصوص الجلليه(88) الذين في البحر القبلي . فأشار على صاحبي الوزير المعزول أن أذهب إلى ينكي دنيا لأنه استحى مني بسبب أنه ما قدر يعمل معي شيئاً من الذي وعدني به واستعد أن يجهزني بكل ما أعتاز ويعطيني مكاتيب توصية إلى وزير ينكي دنيا الذي كان من أقاربه .

---

(87) نظنه أراد معنى الصخر لأن كلمة الكهف وردت على لسان البغداديين بهذا المعنى نقلاً عن السرياني والمعنى العربي معروف وهو المغارة أو البيت المنقور في الجبل

(88) أي العصابات .

الرّحلة المكسيكية

(43)

جزيرة سليمان: الذهب والعاصفة

نبتدي بعون الله تعالى وحسن توفيقه العظيم ونؤرخ أخبار سفرتي إلى بلاد ينكي دنيا (المكسيك)[89].

ففي شهر كانون الأول من شهور سنة 1681 مسيحية دخلنا في المركب الكبير الذي يسمى قبطاناً، وسافرنا ثلاثة فراسخ فوصلنا إلى جزيرة تسمى تابوكا (Taboga) سابقة الذكر وهناك مكثنا ثلاثة أيام وملأنا ماءً وتسوقنا خضراً وفواكه وغيرها من المبردات. ثم سافرنا قاصدين ميناء يسمى رياليخو (Realejo) فمن بعد خمسة أيام جزنا على جزيرة تسمى مونطوزا (Montuosa) وهي غير مسكونة، وهناك سكنت علينا الريح وبقينا اثني عشر يوماً لا يتحرك المركب. وكان أيضاً بجانبنا جزيرة أخرى تسمى إيزلاده لوس لدرونس (IsIa de los Ladrones) أعني جزيرة اللصوص فذكروا لنا أن مركباً سافر في هذا البحر إلى ينكي دنيا فأصابته ريح مخالفة ورمته في جزيرة الرمل. ثم سكنت الريح بعد يومين فجعل البحرية يعمرون بعض أشياء في

(89) يريد بلاد المكسيك.

مطبخ المركب كانت انهدمت من كثرة الرياح التي صادفتهم في البحر ، فطلعوا إلى الجزيرة وأحضروا منها رملا ليملؤوا الحوض الذي يطبخونه عليه ثم سافروا من تلك الجزيرة . وثاني يوم طبخ لهم الطباخ مثل العادة فأراد أن يحركش النار فرأى الرمل كالحجر فقلعه فإذا هو قرص ذهب فلما علموا أردوا الرجوع إلى الجزيرة فما استطاعوا لأنهم لم يكونوا أكدوها ولا وزنوا قيراطات الشمس . وهذه الجزيرة كانت تسمى في كتب القدماء أيسلاده سلامون (Isla de Salomon) يعني جزيرة سليمان ويقولون بأن سليمان لما عمر البيت كان يحضر الذهب من هذه الجزيرة والآن السبنيولية ما لهم نشاط واتفاق وحرارة طبيعة حتى يفتشوا على هذه الجزيرة[90] وبعد الزمان المذكور سهلت لنا الريح السفر فسافرنا وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى ميناء يسمى كولفو دولسه (Golfo dulce) يعني الخليج الحلو لأن هناك يجري نهر ماء حلو ويختلط في البحر ، فرسينا هناك ، وخرج البحرية ليملؤوا الماء وأنا خرجت معهم إلى الأرض لشدة الحر وابتدأت أغتسل في مياه النهر الباردة ليتطرى جسدي .

الخوف من الهنود

وهذا النهر عمقه ذراع فقط ، ورأيت رمله مخلوطاً بالذهب فأريته رئيس المركب الذي كان مولداً في تلك البلاد فقال لي : لا تعجب من ذلك لأن في كل هذه الأراضي وهذه الأنهر يوجد الذهب . لكن السبنيولية لا يتجرؤون على المجيء لاستخراجه لسبب الهنود الكفرة الساكنين في رؤوس الجبال لأن في ذلك الصقع يوجد هنود بغير عدد . وفيما نحن راسون حدث علينا اضطراب عظيم في البحر ومن شدة الاضطراب انقطع حبل المرساة مرتين .

---

(90)وجدنا في تاريخ الأسفار نص هذا الخبر كما ذكره رحالتنا ، لكنَّ كثيرين من الكتبة ينفون صدقه ، سيما بعدما سعت إسبانية سنين طويلة في تحقيقه ولم تبلغ المرام . فقد سافر الفارو دو مندوزا سنة 1595 وبمعيته أسطول عديد ، فطاف كل الجزائر المجاورة ولم يجد ضالته . وبعد هذا التاريخ بثلاثين سنة سعى آخرون من البحارة في البحث المدقق فذهبت مساعيهم أدراج الرياح . على أن تسمية هذه الجزائر باسم سليمان وأنه استجلب منها الذهب اختلاق لم يبن على أساس .

وبعد أن بقينا هناك ثلاثة أيام أقلعنا وسافرنا فوصلنا في ستة أيام إلى ميناء اسمه كلديره (La Caldera) أي ميناء التنجره (الطاجن) فرسينا هناك . فقلت لعسكر المركب أن يحوشوا لي من البحر صفدا (صدفاً) فأتوا بتسع صفدات ففتحتها واحدة واحدة لنأكل ما فيها ففتحت واحدة ورأيت داخلها حبة لولو قدر الحمصة . فقلت للجنيرال : إيش هذه النذالة كيف يكون في هذا البحر لؤلؤ وما تستخرجونه . فقال لي : هذا أيضاً لخوفنا من الهنود الكفرة . وبقينا في الميناء يوماً وكانت الريح ضعيفة والسماء تمطر مطراً سخناً . وبعد خمسة أيام انتهينا قرب جبل يسمى باباكايو (Pa-pagio) ولما وصلنا هاجت علينا ريح شديدة وانكسر صاري الركب ثلاث شقف ، فبقينا من القاطعين الرجاء وأيسنا من الخلاص لأجل الاضطراب الذي في البحر ، وهبطت قلوبنا من الخوف ، لكن بقدرة الباري تعالى هدأ البحر وهمدت الريح .

(44)

أشجار الكاكاو

وبعد ستة أيام وصلنا إلى ميناء ريااليخو (Rialexo , Realego) ونزلنا إلى الأرض ، فبقينا هناك يوماً وليلة ، فكتب الجنرال إلى أسقف مدينة ليو (Leon) التي تبعد عن هذا الميناء نحو تسعة فراسخ وأعلمه بقدومي ، فلما سمع فرح فرحاً عظيماً لأنه لما كنت في باريس كان تصاحب معي وكان له دعوى مع الرهبان في باريس وهو أيضاً كان راهباً من طائفة المرسه (Merci) فحين كسب الدعوى وجاء إلى مدريد أنعم عليه ملك إسبانية بهذه الأسقفية . وثاني يوم خرجت قاصداً مدينة ليون ولما اقتربت رأيت الأسقف جاء لاستقبالي خارج البلد مقدار فرسخين ، فتلاقينا مع بعضنا ثم أخذني إلى بيته وبقيت عنده تمانية أيام . وهناك صادفت رجلاً صاحبي كنت نظرته وتعارفت معه في ليما . فهذا الرجل المبارك أهداني بغلة جيدة والأسقف أيضاً أهداني بغلة إكراماً .

ومن بعد الثمانية أيام خرجنا من هناك إلى ضيعة بعيدة فرسخين تسمى سلواجه ثم رحلنا منها فوصلنا إلى ضيعة أخرى تسمى باللسان السبنيولي نوسترا سنيورا ديل

ويخو (Nostra Senora del Vejo) يعني ضيعة ستنا العذراء للشيخ . فهذه العذراء لها معجزات كثيرة لاسيما مع المسافرين في البحر . ولما كنا في لجاج البحر وانكسر صاري مركبنا ، كما ذكرنا سابقاً ، كنت نذرت على روحي أني إذا وصلت إلى كنيستها أقدّس لها تسعة أيام ، فبقيت في هذه الضيعة تسعة عشر يوماً ووفيت نذري[91] وأيضاً كنت أنتظر سنبكاً الذي يسمى كانوه (Canoa وبالفرنساوي Canot) لنجوز هناك في مضيق البحر وهو نحو أربعة وثلاثين فرسخاً . وكان الأسقف أوصاني أن لا أعبر في هذا المضيق لأنه مخطر جداً وفيه تغرق سفن كثيرة . لكني اتّكلت على معونة مريم العذراء وكنت أدعوها بنت بلادي وركبت في السنبك .

(45)
بلاد سان سلفادور وصف نبات النيل

ففي عشرين ساعة جزنا ذلك المضيق ووصلنا إلى الجانب الآخر ونزلت في قرية تسمى أمابلا (Amapala) وهي أربعة بيوت للهنود . فلاقيت هناك إسبنيولياً آتيا من ينكي دنيا وذاهباً للبيروه . فحكى لي أنه باع فرسه لرجل هندي مع سرجها ولجامها بقرشين ونصف لأنه كان يريد أن يجوز مضيق البحر ولهذا باع فرسه بهذا الثمن . ومن هناك رحنا وسرنا ثمانية أيام أربعين فرسخاً فوصلنا إلى قرية هنود تسمى أموشايو . ومن هناك رحلنا وسرنا ثمانية فراسخ فوصلنا إلى قرية تسمى صان ميكاييل (S. Miguel) ومنها سرنا ثمانية فراسخ إلى قرية تسمى زرواكين . ومنها سرنا ستة فراسخ فوصلنا إلى قرية تسمى استيبيك (Istepec)ومنها سرنا سبعة فراسخ فوصلنا إلى قرية تسمى كوكينبيت . ومنها رحلنا إلى قرية صان مرتين(S. Martin) ثمانية فراسخ . ومن هناك إلى صان سلوادور (S. Salvador) وفي هذه التخوم

---

(91) ذكر المؤرخون هذا المعبد ووصفوا المعجزات التي تجريها فيه العذراء المجيدة ، وقد سميت سيدة ويجو أو الشيخ لسبب جبل النار القريب منها والمسمى (Volcan Vejo).

يزرعون النيل . وهذا النيل يشبه النفله أي الفصة التي يطعمونها للخيل وكل واحد منهم له مزرعة فيزرعون النيل مثل القمح ، وبعض السنين يعلو طول قامة إنسان فيرخص في ينكي دنيا ، وبعدما يكمل زمان حصاده ، يحصدون ذلك الحشيش ويرمونه في حوض عظيم فيحمى ويأكل بعضه البعض وفي ذلك الحوض دواليب ليخبطوا الماء ثم يفرغونه في حوض آخر ، ومن بعد ثلاثة أيام يزبد فيأخذون في أياديهم تلك الزبدة مثل الطابات وينشرونها في الشمس ، فهذا الذي يسمونه في بلادنا نيل قروتي ، والأسفل يعملونه نيل التختة .

(46)
بلاد غواتيمالا

ومن هناك رحنا إلى قرية تسمى خالايا وهو خمسة فراسخ . ومن هناك إلى قرية تسمى أوبيكو سبعة فراسخ . ومن هناك إلى قرية تكيسا ستة فراسخ . وهذه القرية يسكنها مولاتوس (Mulatos) يعني المولودين من أب أبيض وأم سودا وهؤلاء هم سمر لا بيض ولا عبيد . ومن هناك إلى قرية أسكلاتوس عشرة فراسخ . ومن هناك إلى قرية بيتابا اثني عشر فرسخاً . ومن هناك إلى قرية سنتياكو (Santiago) يعني مار يعقوب ستة فراسخ . ومن هناك جزنا إلى بلد واتيمالا (Guatemala) ونزلت في دير مار عبد الأحد فقبلوني بفرح عظيم . وفي هذه البلدة ديوان الملك الذي يسمى في السبنيولي أودنسيا (Audinecia) يرأسه واحد يسمى برزيدنته (Presidente) أي رئيس الديوان . وأيضاً في هذه البلدة أسقف غني جداً اسمه دون خوان أوتيكا ، فرحت زرته وجاء هو أيضاً زارني يوم الأحد الثاني من صوم الكبير ، فدخلت قدَّست في الكنيسة من غير دستور الأسقف بحضرة أب اعترافه فراح حكى له عن حلّة القداس وعن بدلة البابا ، ففرح فرحاً عظيماً وأمر اثنين من خوارنة تلك الكنيسة أن يقفا في خدمة قداسي عندما أقدس . وبقيت في هذه البلدة أربعة وثلاثين يوماً معزوزاً ومكرماً من الجميع وقدَّست في جملة الكنائس وفي ديورة الرهبان وبالحق أنهم كانوا يقدمون لي هدايا لائقة . وكان أيام الصوم الكبير سنة 1682 مسيحية .

ثم بعد تلك الأيام خرجت من هذه البلدة ورافقني اثنان من جواويش الديوان وأربعة من الخوارنة من جانب الأسقف إلى خارج البلدة بميل ، فتودعت منهم وتودعوا مني ورجعوا إلى المدينة ، وأنا سرت مسافراً ثلاثة فراسخ فوصلت إلى قرية تسمى شتمالينا بجاكو . ومنها إلى قرية تسمى باصون ستة فراسخ . ومن هناك إلى قرية باسيما طولوز سبعة فراسخ . ومن هناك إلى صان انطون جيشتبك(St. Antoine de Suchitepec) اثني عشر فرسخاً .

وهذه القصبة كان لها حاكم من مدينة سيويليا فاشتكى عليه الهنود إلى ديوان واتيمالا حتى يعزلوه فقمت أنا توسطت له وكتبت إلى رئيس الديوان الذي كان يسمى دون خوان ميكاييل ده أهورتو . وهذا الرجل قوي مسيحي ومحب للكهنة ، ولما كنت أروح أزوره كان يبرك على ركبتيه ويبوس يدي . وفي هذه القصبة المذكورة يصير الكاكاو الذي يصفونه جيكولاته وأشجاره كثيرة العدد ، وهي في يد الهنود وهم أغنياء جداً ، وقد جعلوا أربعة آلاف غرش رهناً حتى إذا تخاصموا مع الحاكم أو مع خوري القرية يصرفون من فائدة هذه الدراهم على القضاة والكتبة . ورحت من هذه القرية إلى قرية تابو ، وهي على خمسة فراسخ . ومن هناك إلى قرية صانتا ماريا ده بيلين ستة فراسخ . ومنها إلى قرية صان كريستوفل ثلاثة فراسخ . ثم إلى صان فرنسيسكو الالطو ستة فراسخ . ثم إلى قرية خولانيلس ستة فراسخ . ثم إلى رانجو قرية صان رايمون خمسة فراسخ . ثم إلى اكواكتينا انكو فرسخان . ثم إلى قرية بينطو فرسخان . ثم إلى قرية كوكومادانس عشرة فراسخ . ثم إلى قرية صان مرتين ثلاثة فراسخ ثم إلى قرية بيقيطان فرسخان . ثم إلى قرية صان انطون برسكين خمسة فراسخ . ثم إلى قرية وسيتمنام . ثم إلى قرية اسكيتنانكو (Isquintenango) سبعة فراسخ . ثم إلى قرية سوسويتانكتو سبعة فراسخ . ثم إلى قرية بينولا ثلاثة فراسخ . ثم إلى قرية توبيسيا (Teopisca)خمسة فراسخ . ثم إلى بيكانا قرية سيوداد ريال (Ciudad Real)ستة فراسخ . ثم إلى بيلاكانا فرسخان . ثم إلى قرية أستابا ستة فراسخ . ثم إلى خيابا خمسة فراسخ ثم إلى بلد جيانا (Chiapa) السبنيول فرسخان .

فدخلت إلى هذه البلدة ونزلت في بيت الحاكم وفي هذه البلدة أسقف يسمى دون الونصو براوو كان متخاصماً مع بروبنسيال (Provincial) أعني رئيس رهبان مار عبد الأحد . وكان الأسقف المذكور قد حرم حاكم البلد . فلما نظرت هذا الحرم والبغضة التي بينهم تألمت كثيراً ، فتكلمت مع الأسقف ومع البروبنسيال واجتهدت على عمل الصلح بينهما . ثم بعد يومين كان نهار عيد مولد العذراء وكان الجسد المقدس مصموداً على المذبح الطاهر والأسقف كان يقدس . فبعد أن خلص من قداسه قمت أنا من الكرسي وأخذت معي البروبنسيال وحاكم البلد وقدمتهما أمام الأسقف وبركت على ركبتي وقلت له : قال السيد المسيح سلامي أتركه لكم وأمرنا بالصلح والسلام وها هوذا السيد المسيح حاضر وناظر من على هذا المذبح المقدس فيجب علينا أن نترك جميع الأفكار الخبيثة والحقد ونبدلها بالمحبة والوداعة كقول المخلص : باركوا ولا تلعنوا . فقام الأسقف ورفع يده وبارك عليهما وهو يضحك قائلاً : تبارك اسم الرب هاأنذا خوري جاء من بلد بغداد ليصلحنا . حينئذ حلّ حاكم البلد من الحرم ورحنا إلى دار الأسقف معزومين إلى الغداء فبعدما خلصنا من الغداء قام الأسقف من كرسيه ووضع على رقبتي جنزيراً من ذهب يساوي مايتي غرش والحاكم المذكور أهداني بغلة جيدة وأيضاً البروبنسيال أهداني هدية وما كانوا يتركوني ولا دقيقة فكان القسوس والرهبان يسألوني عن بلادنا التي يسمونها الدنيا العتيقة . وبعد أن بقيت هناك ستة عشر يوماً سافرت قاصداً قرية تسمى توستا وهي على فرسخين ومنها إلى قرية اكوسوكاونا أربعة فراسخ . ثم إلى قرية بيانتيك أربعة فراسخ . ومن هذه القرية يفرق الحكم لأنها الحد بين حكم وزير ميخيكو (Mejico أو Mexixo) أي ينكي دنيا وبين حكم واتيمالا (Guatemala) لأن حكم واتيمالا قائم وحده .

(48)

الذهاب إلى مكسيكو

ثم سافرنا إلى قرية ساناتيتيبك التي تبعد ستة فراسخ ثم إلى قرية استينبك تسعة فراسخ ومنها إلى قرية أقانيتبك ثم إلى بلد خلابا وفي هذا البلد كان حاكم يسمى دون خوان بيتياً وهذا كان عمه كاتب ديوان الهند وكان قوي صاحبي . ولما سمع بقدومي خرج فرسخين خارج البلد لملاقاتي واستقبلني بعز واكرام وأنزلني في داره وبالقرب من هذه البلدة جبل فيه جلالية يشلحون (يقطعون السبيل) بعض الأوقات وينهبون عابري الطريق فأرسل معي الحاكم اثنين من الجنود ليخفراني في معبر ذلك الجبل . فعبرناه بمعونة الله بغير ضرر ووصلنا إلى قرية تسمى تكيسيا على أربعة فراسخ ومن هناك إلى قرية صان خوان ديلاكوصتا اثني عشر فرسخاً ثم إلى قرية ينخابا خمسة فراسخ ثم إلى قرية سان ميكاييل عشرة فراسخ ثم إلى قرية سان لوكس ثلاثة فراسخ ثم إلى قرية سان لوكس ثلاثة فراسخ ثم إلى بلد وأخاكا (Guax-aca) ستة فراسخ وفي هذا البلد كان رجل وجيه من إسبانية له أخ في ليما يخدم عند الوزير صاحبي المعزول . فهذا كان أعطاني مكتوباً إلى أخيه الذي في وأخاكا . فلما قربت من هذه البلدة أرسلت له المكتوب فقام هذا الشريف وطلع خارج البلد فاستقبلني بفرح وأخذني إلى البلد وأنزلني في بيت كان هيأه لي . وكان أسقف هذه البلدة قد توفي وبقي كرسي الأسقفية فارغاً وكان هناك ورديان (Gardien) أعني رئيس كهنة . فهذا المبارك لما كان آتياً من الهند إلى إسبانية وقع أسيراً في الجزائر ، فسهل له الله فأعتق وصار رئيساً على قسوس هذه البلدة ، وكانت لي معه صحبة وأكرمني غاية الإكرام وكان اسمه دون ديونسيو . وأما هذه البلدة فهي غنية بالعمائر والكنائس ، لاسيما دير مار عبد الأحد وباقي ديورة الرهبان ومارستانات المرضى ، والكنيسة الكبيرة فاخرة للغاية وغير كنائس أخرى ، وأنا كان معي خرجية (مصروف جيب) مقدار ثمانمائة غرش فأودعتها عند صاحبي المذكور المسمى دون فرنسيسكو ده كاسترو حتى يتسوق لي بها قرمزاً ، لأن في هذه البلدة ونواحيها يطلع القرمز يلصق في بعض أشجار ذات ورق سميك ، مثلما ذكرنا سابقاً ، فيلتصق مثل الدود في

الورق ويصير مثل حب الجدري ثم في حين بلوغه يستخرجونه ويضعونه في فرن حام فييبس وينطفئ . وبعد ذلك ييبسونه .

ومن بعد خمسة عشر يوماً خرجت من هذا البلد قاصداً ميخيكو (Mexico) المذكورة حيث يجلس وزير الملك ، فبعد أربعة فراسخ وصلنا إلى ضيعة تسمى ابيتا ومن ابيتا إلى طاطو ستة فراسخ . ومنها إلى أوانيتبك خمسة فراسخ ثم إلى قرية صان انطوان فرسخان ثم قرية كوس خمسة فراسخ . ثم إلى سان سابصطيان خمسة فراسخ . ثم إلى قرية تيواكان أربعة فراسخ ثم إلى ضيعة أناخوتيبيك خمسة فراسخ . ثم إلى قرية تبياكا سبعة فراسخ ثم إلى مدينة بوبولا ده لوس انخلوس يعني مدينة شعب الملائكة (La Puebla de los Angelos) ستة فراسخ فجزت إلى هذه البلدة ونزلت عند رجل من أصحابي . وهي بلدة كبيرة مفرحة بالقصور وبالعمائر وغنية بالكنائس ، مثل الكنيسة الكبيرة التي هي غنية جداً بالعمارة والفضة والذهب والذخائر المقدسة ، ويسكن الآن في هذا البلد أسقف يسمى دون عمانوييل ده سانتا كروس ، وهو رجل عالم وخائف الله وله معبور في كل سنة ثمانون ألف غرش . وأيضاً في هذا البلد ديورة من جميع طوائف الرهبان .

(49)
وصف مكسيكو

ثم بعد يومين خرجت متوجهاً إلى بلد ميخيكو التي هي بعيدة من هذه البلدة نحو أربعة وعشرين فرسخاً فوصلت إليها ودخلت إلى المدينة ونزلت عند أحد أصحابي ، كان معي مكتوب له من بلد واتيامالا ، فقبلني بالعز والإكرام . فمن بعد يوم وقعت مريضاً وبقيتُ عشرة أيام في الفراش . وأما وزير هذه البلدة فكنت أحضرت له مكتوباً من قريبه الوزير صاحبي الذي كان في البيروه . فبقي يرسل إلي حكمائه ليشرفوا علي . وبعد عشرة أيام تعافيت ، بعناية الله ، وقمت زرت الوزير وزرت امرأته فاستقبلاني بمحبة ووجه بشوش ، وعرض علي الوزير أن أسكن عنده في السرايا ، فاستكثرت بخيره وشكرت فضله على ذلك ، وما أردت أنزل عنده بل استكريت لي

بيتاً بثلاثمائة وستين غرشاً في السنة ، واشتريت لي عربانة وبغال بستمائة وخمسين غرشاً ، ثم ابتديت أروح أزور الأشراف ، فزرت أولاً مطران البلد ، ثم زرت باقي الأعيان ، فالمطران أعطاني دستوراً أن أقدس أينما اشتهى خاطري ، وفي كل ليلة وقت المغرب كنت أروح ألقش (أتحدث) عند الوزير مقدار ساعتين وأرجع إلى بيتي . وأما هذا المكان فهو أرض واطية وفي جانب هذه البلدة بحيرة ماء نابعة من الأرض . وفي بعض السنين أمطرت مطراً زائداً فغرقت البلدة ، وكثير من البيوت امتلأت ماءً وسقطت . وهذه الأرض ما لها أساس ثابت . وإيش نتكلم عن الكنائس التي في هذه البلدة وعن شرف وحسن بنائها وزيادة غناها وهو شيء لا يوصف . لأن في هذه البلدة ثلاثة ديورة لرهبان مار افرنسيس وديران لرهبان مار عبد الأحد وديران لرهبان اليسوعية وثلاثة ديورة لرهبان مار أغسطينوس وديران لرهبان المرسي ، ومارستانات لمداواة المرضى ، وسبعة عشر ديراً للراهبات وديراً للرهبان الكرملتانيين . والكنيسة الكبيرة وغير كنائس أخر عديدة .

(50)
كنيسة العذراء العجائبية

وخارج البلد بنصف فرسخ يوجد كنيسة يوجد على اسم مريم العذراء تسمى وادالوبي (Guadeloupe) وذكروا لنا أنه بعد دخول السبنيولية إلى هذه البلاد بأيام قليلة ، بينما كان أحد الهنود المسمى خوان ديكو دائراً خارج البلد ، إذ ظهرت له امرأة جليلة بهية في غاية الجمال وقالت له اذهب إلى مطران البلد وقل له أن يبني لي بيتاً في هذا المكان . فارتعد الهندي المذكور من ضياء نور وجهها وراح عاجلاً مثل مارسمت تلك الست وقال للمطران كل ماأمرت به . فلمّا تأمل المطران في هذا الهندي وفي حالته الزرية وثيابه الحقيرة أمر بطرده ، فرجع هذا المسكين خائباً ومطروداً إلى المكان الذي تكلمت معه تلك السيدة الجليلة . فظهرت له مرة ثانية في المكان المذكور ، وقالت له كقولها الأول أن يرجع إلى المطران ويقول له كما أمرته ، فأطاع . وراح ثانية عند المطران وعرض عليه كل ما أمرته تلك الست ، فاحتقره أيضاً المطران

وأمر بتهجيجه وطرده ، فرجع محزوناً ومطروداً إلى ذلك المكان . فظهرت له الست ثالث مرة وقالت له : لماذا لم تعمل الذي أمرتك به؟ فأجابها قائلاً : ياستي قد فعلت مرسومك ورحت مرتين عند المطران وعرضت عليه كل ما أمرتني ، لكن هججني وما صدقني . فقالت له : امض إليه ثالث مرة وقل له كل ماأمرتك ، ودونك هذا الورد خذه معك إلى المطران ليصدق قولك . ثم ناولته الورد وكان غير أوانه . فأخذ ذلك الهندي الورد وجعله في الرداء الذي كان ملتحفاً به ، وقصد بيت المطران ، فلما نظره الخدّام وعرفوه هججوه وطردوه . فقال لهم : لأجل الله اتركوني أتكلم مع المطران لأن عندي هدية من عند الست الإسبنيولية أهديها له . فأعلموا المطران بذلك ، فأمر بدخوله ، فلما وقف بين يديه قال له : ياسيدي الست أرسلتني إليك ثلاث مرات وتقول لك أن تبني لها بيتاً في المكان الفلاني ، وها قد أرسلت لك هذا الورد حتى تصدق قولي وتتيقن أنها هي أرسلتني إليك . فلما رمى الهندي الورد من ردائه ونظر المطران لهذا العجب ، لأنه ما كان زمان الورد ، وزاد عجبه إذ نظر صورة مريم العذراء قد ارتسمت في رداء الهندي ، وكان ذلك الرداء من شال سميك . حينئذ جثا المطران على ركبتيه أمام هذا الهندي وطلب منه الغفران . وعاجلاً تخاطفوا ذلك الورد من ذلك الهندي بحيث ارتسمت صورة العذراء في ردائه . ثم شلح (نزع) المطران الرداء المذكور بزياح ودق النواقيس ، ووضعه في المذبح الكبير بفرح وعيد عظيم ، وخرجوا إلى المكان المذكور . وأمر المطران بعمارة الكنيسة في المكان الذي ظهرت فيه للهندي المذكور ، وسماها كنيسة مريم العذراء ده وادالوبي ، والهندي خوان ديكو المذكور كمل حياته في خدمة العذراء في تلك الكنيسة وتنيح مثل الطوبانيين . وهذه الكنيسة خارج عن البلد ميخيكو بنصف فرسخ كما ذكرنا وهي غنية جداً بالفضة والذهب والبدلات المثمنة ، حتى إن درج المذبح الكبير وهو تسع درجات صنعوه من فضة ، والعواميد التي على المذبح أيضاً من فضة . فمن حد هذه الكنيسة إلى داخل هذه البلدة قد عمروا مثل الجسر بعلو ذراعين من سبب أن تلك الأرض في أيام الصيف لما تمطر تصير كلها بحيرة فما يمشون إلا على ذلك الرصيف لأن في ذلك البلد يبدأ المطر من أول شهر أيار إلى آخر شهر أيلول بخلاف عوائد وطقس بلادنا .

(51)

هجوم الهراطقة على أسكلة ويراكروس

وأنا بقيت مرتاحاً في هذه البلدة نحو ستة أشهر حتى وصل مركب من إسبانية وأحضر جملة مكاتيب من التجار إلى شركائهم . وفي هذا المركب جاء رجل محتال وجعل نفسه أنه قادم من طرف الملك ليفتش على المذنبين ويأخذ محاسبة من خزندارية الملك فهذا المفتش رمى خوفاً في قلوب كثيرين من المذنبين . أما الوزير فإنه لما سمع كتب إلى حاكم الأسكلة أن ينظر في الأوامر التي معه ، فما أراد أن يظهر أوامره ، فعلم الوزير أنه كاذب محتال فأرسل خلفه جنوداً ليحرشوه فوجدوه وأمر الوزير بحبسه . وبتلك الأيام جاء بعض مراكب قرصان إلى ميناء ويراكروس(Vera Cruz) وكانوا كلهم هراطقة مجتمعين من كل أجناس الطوائف فوصلوا في الليل وخرجوا للبر بعيداً عن الميناء بفرسخ ودخلوا البلد مثل اللصوص لأن ليس للأسكلة سور وعبروا إلى بيت حاكم البلد وحبسوه . وبعد ذلك دخلوا وأخرجوا الناس رجالاً ونساء وحبسوهم في الكنيسة الكبيرة وسكّروا عليهم وأقاموا حراساً على الأبواب ، وابتدؤوا ينهبون ويسلبون الديورة والكنائس والبيوت مقدار ثلاثة أيام . ثم أخرجوا الناس من الكنيسة وحملوهم مال النهيبة (النهب) وساقوهم إلى حيث كانت المراكب راسية بعيداً نحو نصف فرسخ وحملوا المال وجميع الرجال والعبيد في هذه المركب وأخذوهم إلى جزيرة قريبة من ذلك الميناء نحو فرسخ وأنزلوهم هناك وقالوا لهم إما أن تعتقوا أرواحكم أو نقتلكم جميعاً . وقطعوا مائة وخمسين ألف غرش فأرسل هؤلاء المساكين من جانبهم إلى مدينة البوبلا المذكورة (Puebla) ليحضروا عتاقهم (الفدية) . فمن بعد عشرة أيام قدموا لهم المائة والخمسين ألف غرش فأعتقوا الناس السبنيولية وأخذوا العبيد السود وجميع المال الذي نهبوه من هذه البلدة مقدار ثمانية مليونات وكان عدد هؤلاء القرصان الجلالية ستمائة نفر والسبنيولية مع عبيدهم كانوا أزيد من أربعة آلاف نفر . وكان الرئيس على القرصان رجل هرطوقي له رفيق وشريك إسبنيولي يسمى نسيليو فتخاصما على قسمة المال ما بين الاثنين فقتل نسيليو الرئيس الهرطوقي وانتصب عوضه رئيساً على القرصان . وأنا كان لي في هذه البلدة

حمل قرمز اشتريته من واخاكا بألف غرش فنهبوه من جملة الأموال . وبينما هؤلاء القرصان في تلك الجزيرة أتت المراكب من إسبانية وفي دخولها إلى الميناء أرسل الوزير فأعلم الجنيرال حقيقة الحال ليحارب قبل دخوله أولئك القرصان ويحرقهم . فنصب الجنيرال بيرقاً ليجمع عنده رؤساء كل المراكب ويعملوا ديواناً ويحطوا خطوط أياديهم حتى لا يكون الجنيرال مذنباً وحده لأن مراكبه كانت موسوقة بضائع ، فخاف أن يغرق له مركب أو يحترق في المحاربة . فلما ابتعد من الميناء واجتمعوا وعملوا ديوانهم نظر إليهم نسيليو فنصب قلاعه وسافر وهو يضحك على المراكب السبنيولية وخرج أمامهم من غير خوف بعدما أخذ معه أزيد من ألفي أسير مع عبيد سود ومنهم حمر وكان ذلك في تاريخ سنة 1683 مسيحية .

(52)
التفكير في رحلة إلى الصين

فمن قبل هذا التاريخ بمقدار مائة سنة على زمان فيلبه الرابع ملك إسبانية سافرت مراكب من ينكي دنيا إلى نواحي الصين ، فرأوا جزيرة واكتسبوها وجعلوا اسمها فيليبيناس (Philippines) على اسم الملك المذكور وسكن هناك إسبنيولية وراحت في غير سنين إلى هذه الجزيرة مراكب مع عدة قسوس ورهبان وتلمذوا أناسها وردوهم من الوثنية إلى إيمان المسيح[92] .

ومن هذه الجزيرة يجي في كل سنة مركب إلى ينكي دنيا ملآن من بضائع بلاد الصين ، فيصل من هذه الجزيرة إلى ينكي دنيا بثمانية أشهر ، لكنه في العودة يرجع

---

(92) لم يصب مؤرخنا المرمى في تعيينه لزمن اكتشاف هذه الجزائر فإن مكتشفها هو رويس لوبس دي فيلالوبس . سافر سنة 1542 من المكسيك وبلغ هذه الجزائر بعد شهرين ولم يتملك عليها الإسبانيول إلا في سنة 1560–1570 وقد عرفت مذ ذاك باسم فيليب الثاني ملك أسبانية .

بثلاثة أشهر[93] وأيضاً كل سنة يروح إلى تلك الجزيرة مركب من بلد سورط[94] إلى تجار أرمن يسمون جلفاليه[95] ساكنين في هذه الجزيرة ـ وهم اثنان ـ يأخذون مال هذا

---

(93) لما توطدت سلطة أسبانية على بلاد الهند الغربي (البيروه والمكسيك) والشرقي (الهند وجزائر الفيلبين . . .الخ) أراد التجار في كل من مدن مانيلا (Manille) وليما (Lima) أن يربطوا الهندين معاً بطريق البحر تسهيلاً للمواصلات التجارية وتقريباً للمسافات الشاسعة . فنجح سعيهم وجعلت المراكب تسير بين العالَمين حاملة من أمركة إلى الصين والهند الشرقية ما امتازت به من المحصولات والفضة والذهب نقوداً وسبائك ، فتعود محملة بضائع الصين من مصاغات وحرائر وأقمشة وأبازير وتوابل وعطريات . وقد اشتهرت الجوارب الحريرية التي كانوا يأتون منها كل سنة بخمسين ألف زوج . أما مدة السفر فكانت تختلف مع الطريق فيقلع المركب من ميناء الكالاو (Callao) في أواسط آذار متتبعاً الأرياح الموسمية المسماة (Alizes) التي تهب من الشرق للغرب فيبلغ مانيلا في أقل من شهرين ، لكن العودة صعبة كانت تستغرق من عشرة أشهر إلى اثني عشر شهراً ، فأرشدهم أحد الآباء اليسوعيين إلى الانتفاع من الأرياح المضادة فجعلوا يخرجون في تموز من مانيلا فيسيرون نحو الشمال إلى أن يلتقوا بالأرياح الغربية التي تهب في تلك الأصقاع ، فتدفعهم إلى شطوط كاليفورنية والمكسيك بين شهري كانون أول وكانون الثاني فيحطون في ميناء أكابولكو (Acaqulco) في المكسيك .

(94) نظنه يريد مدينة (Surate) في شمالي مقاطعة بمباي في خليج كامباي الذي دعاه ابن بطوطة كنبايت . وقد وصف مدينة بهذا الاسم وذكر سعة تجارتها . أما سورط أو سورات فهي مدينة حديثة لم يكد يأتي ذكرها في كتب العرب ، لأن اشتهارها لم يسبق أوائل القرن السابع عشر ، حيث أصبحت ملتقى تجارة المغول والفرس ، فأقامت فيها الشركات الإنكليزية والفرنسية والهولندية فروعاً مهمة ، وكان فيها رسالات دينية لليسوعيين وغيرهم .

(95) يريد على زعمنا النسبة إلى جلفا (Julfa) وهو حي أو محلة في جوار أصفهان بناه شاه عباس في أوائل القرن السابع عشر وأجلى إليه سكان مدينة جلفا القديمة وسماها باسمها جلفا وما لبثت أن أصبحت مدينة مهمة امتدت الكثلكة بين سكانها الأرمن الكثيرين وتعددت الرسالات للرهبان اللاتين . فأتت بأثمار خلاصية ذكرنا شيئاً منها في الجزء الأول الصفحة ٣٨-٣٩ من مجموعتنا المعنونة Documents intedits pour servir a l Histtoire du Christianisme en Orient Prix. 6 f (Picard a Paris Luzac a londers Harrassowite a Leipzig) 1905

المركب ويدينونه للسبنيولية لوعدة سنة . ففي كمال السنة يجي مركب من سورط فيأخذون من السبنيولييية دراهم العام الأول ويعطونهم أيضاً لمثل هذه الوعدة الرزق الجديد . ولا يعطى دستور لغير طوائف ، فلا يجي مركب إلى هذه الجزيرة سوى المركب الذي للجلفالية فقط . وكان لي نية أن أسافر مع المركب إلى تلك الجزيرة ، ومن هناك أركب في مركب هؤلاء الجلفالية إلى سورط ، ومن سورط إلى بلادي(96) لكن صدّني عارض مع الرجل الذي كان ذاهباً ليحكم في تلك الجزيرة(97) فطلب مني أن أدينه عشرة آلاف غرش فشاورت الوزير فقال لي : در بالك لأنه مديون وعليه مائتا ألف غرش ديناً . فامتنعت عن الرواح وقصدت أن أرجع إلى بلاد إسبانية .

(53)

أخبار الصين والفيليبين

وذكروا لنا أن من مدة خمسين سنة لما كان بعض الكاروزين يذهبون من هذه الجزيرة إلى بلاد الصين الجواني ليتلمذوا أناسها ويرجعوهم من الوثنية إلى إيمان المسيح ، فالشيطان عدو الخير والإحسان ألقى في قلب ملك الصين أن يقبل جميع الرهبان الذين يكرزون هناك فقتلهم وأمر بتحضير مراكب وعساكر ليسافر إلى جزيرة فيلبيناس (Philippines) فلما نظر سكان الجزيرة هذا العسكر العظيم القاصد محاربتهم اعتراهم الخوف لكونهم قليلين وغير مستعدين ، فمالهم حيلة ولا ملجأ غير الدخول إلى الكنيسة ، فعبروا للكنيسة وابتدؤوا في التضرع والصلاة وحملوا الجسد المقدس وخرجوا بالزياح والصلاة إلى محاربة الأعداء فبقوة الله وعدالته التي لا تتخلى عن القاصدين إليه بأمانة هاج البحر على تلك المراكب وشتت شملها

(96) كانت المواصلات التجارية بين سورات وبغداد عن طريق إيران متتابعة كما جاء مراراً في الرسائل والرحلات المطبوعة وغير المطبوعة المحفوظة عندنا ، ويا ليت رحالتنا عاد إلى بلاده عن طريق الفيليبين والهند والعجم لكانت سفرته غريبة لم يسبقه أحد إليها .

(97) الفيليبين جزائر لا جزيرة واحدة .

وحطمها وأبادها ومن جميع ذلك الجيش العظيم ، ما خلص سوى ثلاثة عشر مركباً . فلما سمع ملك الصين بهذا الضرر العظيم الذي أصابه حزن حزناً عظيماً ومن حزنه هلك عاجلاً وأوصى ابنه الكبير المتولي الحكم بعده أن يهيئ عسكراً آخر بمواكب حصينة ويقصد محاربة تلك الجزيرة . فلما اهتم ابنه المذكور وجمع العساكر وجهز المراكب ، عرض لهم مثلما عرض للأولين وبادوا أجمعين . وعرض لهذا الملك ، أيضاً ، ما عرض لوالده ومات فقعان (مقهوراً) لحزنه . فخلفه أخوه الصغير ولما جلس في الحكم نوى أن يهيئ عساكر ومراكب ، فأشارت عليه والدته أن لا يضاد تلك الجزيرة لئلا يجري له ما جرى لأبيه وأخيه ، بل الأفضل أن يصالحهم ويصاحبهم ويتركهم يدخلون البلاد ويكرزون ، ولا يعارضهم بوجه من الوجوه . والآن في كل ثلاث سنين يجيء رهبان من إسبانية ويعبُرون للصين ويكرزون ويتلمذون بغير مانع . وأنا كان لي صديق كان قبطان في تلك الجزيرة مقدار سبع عشرة سنة ، فلما جاء إلى ميخيكو استضاف عندي وحكى لي جميع هذه الأمور والمعاجز التي صارت في فيلبيناس . وهذا الرجل صادق بقوله وأيضاً شهادة الرهبان اليسوعية وغيرهم من الرهبان الذين ثبتوا تثبيتاً صادقاً واضحاً تلك المصيبة[98] .

(54)
جزائر ماريان

ومن مدة خمسين سنة اكتشف أيضاً السبنيولية (الإسبان) على جزيرة قريبة من فيلبيناس وفتحوها وكان سكانها هنوداً عابدي الأصنام ، فلما ملكوها نصروا وعمدوا أهاليها وسموها على اسم الملكة امرأة الملك فيلبه الرابع (Philippe IV) وأم هذا الملك كارلوس الثاني ، وكان اسمها الملكة ماريانا ده أووستريا(Marie Anne d'Austriche) التي هي أخت الأمبارادور ليوبولد فجعلوا اسم تلك الجزيرة ايزلا

(98) لا ندري كيف لخّص مؤلفنا هذه الأخبار ونظنه خلط بين أخبار الاضطهادات التي حدثت في اليابان والصين والتونكان .

ده ماريانـاس (Mariannes) ولما كنت أنا الحقير في ميخيكو جاء مركب من فيلبيناس وجاء معه راهبان من رهبان مار عبد الأحد ومعهما عرض حالات إلى سيدنا البابا. وهؤلاء الرهبان جاءوا معي إلى إسبانية في مركب واحد حينئذ أروني العرض حالات حتى أعينهم وأساعدهم عند سيدنا البابا على المصيبة التي قد صنعها قضاة فيلبيناس مع مطران هذه البلدة وهي أن المطران المذكور تخاصم من الرهبان اليسوعية وطلب منهم العشور فما أطاعوه ولا أرادوا يؤدوا له ذلك[99] فبسبب هذا احشوا عليه (قام) قضاة البلد فأرسلوا تحت الليل مسكوه وحطوه في المركب ونفوه إلى مكان بعيد ثلاثين فرسخاً. وهذا المطران كان راهباً من رهبان مار عبد الأحد ومات ذلك المطران في النفي كمثل مار يوحنا فم الذهب. فلما وصل هذان الراهبان إلى رومية وعرضوا تلك العرض حالات المشتملة على هذه القضية إلى سيدنا البابا وسمع البابا تلك القباحة الردية أرسل يعاتب ملك إسبانية على هذا الفعل الذي صنعه القضاة في ذلك المطران. فلمّا علم الملك والديوان هذا الأمر أرسل إلى فيلبيناس وعزل أولئك القضاة من وظائفهم ونفاهم وماتوا منفيين تحت الحرم.

---

(99) يجهلُ الرَّحالة أن اليسوعيين وكثيرين غيرهم من الرهبان معفون من أداء العشور لرؤساء الأبرشيات. على أننا قلَّبنا كُتُبَ التّاريخ فلم نجد ما ينطبق على قول صاحب الرحلة، ولربما خلط بين حادثين جرى الأول بين اليسوعيين في المكسيك، وبين يوحنا بالافوكس مطران بوبلا ده لوس انجلوس، وذلك قبل رحالتنا بأربعين سنة فطلب العشور من اليسوعيين فلم يرضوا، وحكم لهم الكرسي الرسولي. أما بالافوكس فابتعد عن مدينته وزعم أن ذلك بإغراء المرسلين. وأخبار هذا الأمر طويلة (اطلب تاريخ الرهبانية اليسوعية للمسيو كريتينو جولي المجلد 4 الصفحة 68 . . الخ) والثاني أرنان غريرو مطران مانيلا في الفليبين من معاصري صاحب المقالة وقد ذكر في تاريخه أنه دعا كهنة مانيلا إلى اجتماع فاعتذر اليسوعيون فغضب المطران، ولكنه لم تطل مدة غضبه فقبل عذرهم، وأعلن أسفه لما حدث وعاد إلى ما كان عليه من مصادقتهم (اطلب Historia delle PhiliPINE p.220) وكريتينوجولي المجلد 5 الصفحة 22 . . الخ.

العودة إلى أوروبا

(55)

زيارة كوبا

فنتكلم الآن عن رجوعنا . ولما أرادت المراكب ترجع إلى إسبانية ، فانحدرت من بلد ميخيكو (Mejico) إلى أسكلة ويراكروس (Vera Cruz) وهي ثمانين فرسخ . فتكلمت مع جنيرال المراكب أن خذني إلى إسبانية فطلب مني كروة (أجرة) ألف غرش مع الأكل والشرب ، لأن قوانين هذه المراكب أنهم يكرون (يؤجّرون) الأوضة ذراعين ، وعرضها ذراع وثلث ، وعلوها ذراع ونصف . فلما رأيته طلب ألف غرش صعب علي ، لكن غصباً عني رضيت . فمن بعد ثمانية أيام اجتمع رؤساء المراكب وعملوا ديواناً ومشورة إن كانوا يقدرون أن يخرجوا من الهند ويأتوا إلى إسبانية في هذه الأشهر ورموا القرعة لأنهم لا يقدرون أن يسافروا إلا بعد ثلاثة أشهر ، فجهزوا مركباً صغيراً مع مكاتيب وأخبار تلك البلاد وأرسلوه قبلهم سبيقاً (مسرعاً) إلى إسبانية . فلما نظرت ذلك حرتُ في أمري بسبب أن تلك الأسكلة حارة وماءها عاطل وهواها أتعس . حينئذ استهميت وركبت في ذلك المركب الصغير الذي أرسلوه إلى إسبانية قاصداً السفر معه إلى جزيرة تسمى لاوانا (La Havana هافانا) لأنها أسكلة إلى غلايين البيروه وإلى مراكب ينكي دنيا التي يقال لها الفلوتا (Flotte) فحصل صديق

لي في أسكلة ويراكروس وأشار علي أن أشتري حملي بصل يابس وصندوقي تفاح لأجل أرمغانات[100] فاشتريت وعملت بشوره .

وسافرنا مع قدرة الله ، وبعد عشرين يوماً وصلنا إلى هذه الجزيرة المذكورة لاوانا ونحن فرحون مسرورون وحاكم هذه الجزيرة كان أخا الجنيرال الذي أوصلني للبيروه ، فقدمت له البصل والتفاح أرمغان فتعجب وقال : كيف علمت أننا نعتاز (يعوزنا) البصل والتفاح في هذه الجزيرة . فإنهم إذا زرعوا البصل عندهم في الجزيرة يطلع مثل أذناب الفأر وإذا تركوه حتى يكبر يتخ (يهترئ) وييبس . فبقيت في هذه الجزيرة أربعة أشهر ونصف حتى جاءت المراكب من ينكي دنيا (المكسيك) وهذه الجزيرة هواها مليح وماؤها طيب وأناسها محبون فلما أردت أخرج من هذه الجزيرة حتى أتوجه إلى إسبانية جاءني بشاكيش[101] عوض البصل والتفاح تسعة صناديق سكر مع مرطبانات[102] المربى وأنا كنت استكريت في المركب الذي كان جاء من كراكس (Caracas)بثلاثمائة وخمسين غرشاً وسافرنا . فبمعونة الله وصلنا إلى جزيرة القاع (Lucayes)فقام علينا اضطراب في البحر من عظم زيادة الريح ودام أحد عشر يوماً وتشتتت المراكب على وجه البحر ونحن بقينا في بكاء وعويل مع صلوات وزياحات في المراكب وندورة إلى الكنائس والقديسين ومن بعد الأحد عشر يوماً المذكورة سهل الله وهمد عجاج البحر واجتمعت مراكبنا التي كانت مشتتة لأن في الليل يشعلون الفنارات حتى لا يتيهوا ويضيعوا بعضهم عن بعض ، وأيضاً حتى لا يقربوا كثيراً إلى بعضهم لئلا يخبط مركب في مركب وينكسروا . حينئذ جاءتنا ريح مناسبة فرجعنا إلى دربنا متوجهين إلى كادس . فمن بعد اثني عشر يوماً كشفنا على الأرض من فجر النهار ، وكانت الريح مساعدة جداً حتى في نصف النهار .

(100) ارمغانات ، أي هدايا وهي كلمة فارسية الأصل جرى استعمالها في حلب وما بين النهرين .

(101) بشاكيس ، جمع باشكيش أو باشكاش . ذكرها المؤلف غير مرة في مقالته وأراد بها البخشيش . وبخشيش كلمة فارسيّة من فِعل بخشيون بمعنى أَعطى وغَفَر .

(102) مَرْطبان ، كلمة فارسيَّة يرادُ بها الإناء الذي تُحفظ فيه الحلاويات والعقاقِير وغيرها .

(56)

في ميناء قادش

دخلنا بالسلامة إلى ميناء كادس وكانت مراكب الحرب التي لملك فرنسة راسية خارج الأسكلة وأيضاً مراكب الحرب التي لملك إسبانية راسية قبالهم . فلما دخلنا بين هذه المراكب سلمنا عليهم بضرب المدافع فردت مراكب فرنسة وإسبانية علينا السلام وبقي ضرب المدافع من الجانبين وصار الدخان عليهم مثل الضباب فدخلنا الميناء ورسينا فثاني يوم أتانا أصحاب من البلد في سنابك طالعونا إلى البر ، فأخرجت صناديقي بأمر رئيس الديوان الذي يسمى برسيدنته من غير أن يفتحوها ويفتشوها كالعادة . فمن بعد عشرة أيام رحت إلى بلد سيويلية (Seville) أشبيلية لأخلص ألفي غرش من قبطان مركب كان تدينها مني ليشتري عازة مركبه . فلمّا وصل إلى كادس يسقوا على المركب وأخذوه لأن كان عليه دين لكنيسة سيويلية ثلاثين ألف غرش ، فرحت أنا ادعيت فحكم البرسيدنته بالحق وقال : قبل كل شيء يستوفي هذين الألفين غرش لأنه لولا هذا المبلغ ما جاءكم المركب . فأعطوني إياها ورحت إلى كادس واستكريت مع مركب هولانديزي حتى أتوجه إلى رومية وكان معي خادمان من أولاد الأرمن ، وكنت أحضرت معي من الهند أربع درات وهي الطيور التي تسمى في لسان الفرنجي باباكاي (ببغاء) (Perrouet) يتكلمون مثل الإنسان وجبت (جلبت) أيضاً قنديل فضة يساوي ألف وأربعمائة وخمسين غرشاً وصنعته غريبة ، فقدمته إلى سيدنا البابا وإلى كنيسة المجمع فلما رآه الكردينالية فرحوا فرحاً عظيماً بلطافة صياغته . وفي ذلك الحين أنعم عليّ سيدنا البابا اينوسنسيوس الحادي عشر صاحب الذكر الصالح بوظائف لم أكن لائقاً لها . والحمد لله إلى الأبد آمين .

تمت

ملاحق الكتاب

ملحق (1)
نص كراتشكوفسكي عن الموصلي

ظهر الرحالة الثاني لأواخر القرن السابع عشر (إلياس موصلي) والذي يتميز بطرافة أكثر، سواء في ما يتعلق بطريق رحلته الذي لم يكن معهوداً للعرب، وذلك في أمريكا الجنوبية، أو في ما يتعلق بشخصيته نفسها، فمما لا شك فيه أن إلياس بن حنا الموصلي ينتمي إلى تلك الأوساط المسيحية التي خرج منها (أمراء الكنيسة) لأنه من بيت عمون الذي ينتسب إليه عدد من بطاركة النساطرة والذي ارتبط عقب الاتحاد مع رومة في عام ١٥٥٣ ارتباطاً وثيقاً بالمدينة الأزلية (the eternal city) وبممثلي مختلف الطوائف الدينية في الشرق والغرب، هذا وقد استقرت أسرته ببغداد وله إخوة معروفون من أسمائهم لعبوا دوراً ما في الموصل وحلب، كما أن ابن عمه يونان أتم دراسته في عام 1650 برومه، ربما بكلية الدعوة إلى الإيمان (collegia de propaganda fide)، وإن مجرد تفكير إلياس في القيام برحلته إلى أمريكا إنما يقف دليلاً على سعة أفقه وإمكانياته، ولا نستطيع التكهن بصورة دقيقة عن طبيعة الأغراض التي هدف إليها من ذلك ولو أنه يجب أن يحتل المكانة الأولى من بينها بالطبع جمع التبرعات من أجل كنيسته كما نعلم جيداً من أمثلة رجال الدين الذين زاروا روسيا الموسكوفية، غير أن معاونة البابا والسلطات الإسبانية له في هذه الرحلة يقف دليلاً على أنه قد ذهب في مهمة خاصة من المحتمل أنه قصد عدم الإشارة إليها، وهو قد زار رومة أكثر من مرة، وقد أشار إلى إحدى زياراته لها في عام 1695 راهب كرملي ذو مكانة عمل بملبار بالهند وذلك في كتاب له باللغة الإيطالية، وكان إلياس قد التقى بهذا الراهب أكثر من مرة سواء خلال سفره بالعراق أو أثناء زياراته لرومة.

ومر إلياس برومة في طريقه إلى أمريكا الجنوبية، فقد خرج من بغداد في عام 1668 في رفقة طوبجي (باشا) المدفعية التركية بالشرق الأدنى ميخائيل كوندوليو (M. con-doleo) وأصله من قبرص، وحملا معهما خطابات من الآباء الكرمليين ببغداد الذين

كانوا يلعبون آنذاك دوراً كبيراً في تلك المدينة ، ويقف هذان المثالان دليلاً على اتساع علاقات إلياس ، وبعد أن أدى فريضة الحج إلى القدس زار في طريقه حلب والإسكندرونة ثم أخذ طريق البحر إلى البندقية متوقفاً لفترات قصيرة بقبرص وكريت وزانتي (Zante زانطية) ، وابتداءً من إيطاليا تأخذ الرحلة طابعاً أكثر تفصيلاً ، وفي رومة تشرف بمقابلة البابا كلمنت التاسع ، ثم ركب البحر من جنوه إلى مارسيليا فأقام لبعض الوقت بفرنسا وإسبانيا ، ورجع عقب ذلك إلى إيطاليا لأسباب مالية ، ولنفس هذه الأسباب زار صقلية ثم رجع إلى إسبانيا ، ومنها سافر إلى البرتغال ، وهناك عقد العزم بصورة جازمة على زيارة أمريكا . ولكي يحصل على تصريح من السلطات العليا بهذا فقد اضطر إلى الذهاب إلى مدريد إلى بلاط كارلوس الثاني ، وفي فبراير من عام 1675 أقلعت بهم السفن من قادس إلى أمريكا ، وقد مروا في طريقهم بجزر الكناري متجهين صوب كراكاس بفنزويلة ، ثم بعد إبحار دام خمسة وخمسين يوماً وصلوا إلى قرطجنة (كرتاخينا) بكولومبيا ، وهنا توقفوا لأول مرة لبعض الوقت . وبعد ذلك واصل المؤلف رحلته بطريق البحر والبر على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربي ، وكان يتخلل ذلك وقفات طويلة ، فمر على بنما ، ومنها إلى كولومبيا ، ثم إلى إكوادور حيث أقام مدة طويلة بمدينة كيتو ، وقد أقام بليما عاصمة بيرو (بلاد البيروه) عاماً ونصف عام بالتقريب ، وأقصر من ذلك كانت زيارته لبوليفيا والأرجنتين وشيلي ، أما البرازيل ومدينتي توكومان (tucuman) وبوينس آيرس فإنه يورد وصفها اعتماداً على رواية الغير ، وفي عام 1680 نراه مرة ثانية بليما حيث دوّن القسم الأول من وصف رحلته والذي أضاف إليه وأكمله بالتالي ، وفي طريق الرجعة عزم على زيارة ذلك الجزء من أمريكا الوسطى ، الذي كان يحمل التسمية التركية المعروفة لنا جيداً ينكي دنيا (أي الدنيا الجديدة) والذي يقصد به ، أساساً ، بلاد المكسيك (ميخيكو) ، فغادر ميناء كلخو (الكلياو El Callao) ببيرو في 21 سبتمبر 1681 ومرَّ على بنما ثم بسواحل كوستاريكا ونيكاراغوا وهوندوراس وغواتيمالا وزار نقاطاً متعددة من المكسيك ، من بينها العاصمة نفسها التي أمضى بها ستة أشهر وترك لنا وصفاً مفصلاً لها ، وتحت تأثير القصص التي سمعها عن الفلبين والتي يورد عدداً منها بتفصيل وافٍ انبعثت لديه فكرة الرجوع إلى وطنه عن طريق تلك الجزر ماراً بالصين وبسورات (سورط) بالهند

حيث وجد لديه بعض الأصدقاء ، غير أنه اضطر بالتالي إلى الإقلاع عن هذه الفكرة ، فأخذ الطريق العادي من المكسيك خارجاً من ميناء فيراكروز (ويراكروس) إلى هافانا (لاوانا) ، وأثناء عبوره للمحيط فاجأتهم عاصفة هوجاء ، ولكنه وصل آخر الأمر سليماً معافى إلى قادس ، وبعد زيارة قصيرة لإشبيلية لأغراض مالية تجارية وصل إلى رومة في عام 1683 وقدم إلى البابا إنوسنت الحادي عشر (إينوسنسيوس الحادي عشر) الهدايا التي جلبها من وراء البحار .

ويلوح أنه قد أمضى بقية سني حياته برومة ، ومما يقف برهاناً على هذا أنه طبع على حسابه الخاص برومة وذلك في عام 1692 كتاباً للصلاة باللغة العربية في عهد البابا إنوسنت الثاني عشر من أجل مواطنيه المشارقة (un liver de priere pour les orientaux) ، وقد بين في هذا الكتاب الألقاب العالية التي أنعم بها عليه لا البابا وحده بل وإمبراطور إسبانيا مما يحمل على الاعتقاد مرة أخرى أنه قدم خدمات ما لهاته الشخصيات الكبرى ، ويبدو أن الكتاب (المقصود كتاب الصلاة - المحرر) وجد بعض الرواج عند الأوساط التي عمل من أجلها ، فقد أعاد طبعه برومة في عام 1725 أحد الموارنة دون أن يشير إلى المصدر الذي أخذه عنه .

هذا وقد طبعت رحلة إلياس الموصلي اعتماداً على المخطوطة الوحيدة المعروفة آنذاك ، والموجودة بحلب وأيضاً على النسخة التي نقلت عنها ببيروت في القرن التاسع عشر ، وهي تتكون من قسمين مستقلين عن بعضهما البعض تمام الاستقلال ، يشمل أحدهما الوصف الأساسي للرحلة بعنوان (السياحة) ، على حين أفرد القسم الثاني الذي يقع في نفس الحجم تقريباً ، ويضم سبعة عشر فصلاً للكلام على اكتشاف أمريكا وتاريخها . وهو يعتمد اعتماداً أساسياً في هذا القسم الثاني على المصنفات المكتوبة باللغتين الإسبانية واللاتينية .

هذا وقد تم نشر القسم الأول بعناية كبرى مع شرح مفصل لأسماء الأعلام وتعليقات مختلفة ودون أي حذف بواسطة ا . رباط ، أما القسم الثاني الذي لا يمثل قيمة كبيرة فقد نشر منه رباط الفصل الحادي عشر فقط الذي يبحث في (الآثار النصرانية في أميركه المتوسطة والجنوبية) التي وجدها الإسبان عند اكتشافهم لتلك البلاد (les traditions chretiennes en amerique avant colomb) .

وموضوع هذه الرحلة يقف دليلاً بما فيه الكفاية على أهمية المكانة التي تحتلها رحلة إلياس الموصلي في الأدب العربي، وهي لا تقل أهمية وطرافة من ذلك من حيث مضمونها. ويجب الاعتراف بأن قراءتها قد لا تخلو أحياناً من تأثير مؤلم على نفس القارئ فهي أثر من الآثار التي تصور عهد الاستعمار الذي أناخ بكلكله على أهل البلاد الأصليين واستغلهم استغلالاً مشيناً. والمؤلف يعرض لنا وقائعه بالكثير من الهدوء دون أن يعكس أية انفعالات عاطفية إزاء ما يسرده، وفي هذا بالذات تكمن أهميته كمصدر تاريخي جغرافي ذي قيمة بالنسبة لذلك العصر بأجمعه. ولا شك أن المؤلف يتمتع باطلاع واسع ولكنه يجمع إلى ذلك سذاجة مذهلة(sancta simplicitas) تنعكس بوضوح في طريقة سرده لقصة الرحلة، وبالطبع فقد اقتصر وسطه، أساساً، على محيط رجال الدين والسلطات الإسبانية وكان ينزل أثناء أسفاره ضيفاً على رؤساء محاكم التحقيق (inquisition)، وهو يطلق عليها (ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي الذي يسمى في لسان السبنيولي الإنكيجسيون inquisicion المحليين، أو على حكام النواحي أو الأساقفة، ولو أنه كان على الدوام يأخذ طرفاً في الحياة اليومية المحيطة به ويتدخل في النزاع بين الطوائف المختلفة، ويراقب عن كثب مجريات الأحوال، ويدوّن الحوادث التي يجدها جديرة بالتسجيل. أما سكان البلاد الأصليين من بين الهنود فقد حدث له أن التقى بهم في أثناء أسفاره التي قام بها أحياناً مع دليل أو دليلين من الهنود المحليين، وهو قد رأى المزارع والمناجم التي كان يعمل بها الأرقاء كما رأى الأهالي يشتغلون بسوق البغال (muleteers).

وروايته على العموم تتميّز بالدقّة والتفصيل فهو يسجل باهتمام كل ما يقع أثناء الرحلة بما في ذلك الظواهر الطبيعية، ونظراً لأنه كان صياداً ماهراً فهو لم يهمل الوقوف عند هذا الجانب من النشاط البشري.

وقد ظهر لديه معارف في كل موضع سواء برومة وباريس أو إسبانيا، وكان يحمل خطاب توصية لكل شخص حتى من الشرق نفسه، وهو يحكي بنفس (السذاجة المذهلة) كيف كان يقرض أصدقاءه النقود، بل ويذكر من وقت لآخر قيمة الربح الذي كان يطالبهم به، وكيف كان يدخر الفضة وبعض السلع القيمة، ويبدو أن غرضه من هذا لم يكن تقديم الهدايا فقط بل القيام أيضاً بصفقات تجارية، غير أن هذا كله لم يمنعه

من القيام في كل مكان بالخدمات الدينية في المسوح الذي باركه البابا ولكن بلغته السورية . وهو لا ينسى أحياناً أن يذكر لنا قيمة الهدايا التي أغدقت عليه في تلك المناسبات .

أما المادة الجغرافية الخالصة التي تحويها دفّتا كتابه فتتسم عادة بالصحة كما أنه يمكن التثبت من أسماء المواضع التي يوردها دون كبير عناء ، وعدد هذه المواضع كبير ويقدم مادة لا بأس بها عن أحوال ذلك العصر ، وهو في وصفه للحياة الاجتماعية وأسلوب المعيشة لا يقتصر على الطبقات العليا للسكان الإسبان وحدهم بل يمس أيضاً السكان المحليين من الهنود الذين لا تختلف نظرة المؤلف إليهم بطبيعة الحال عن نظرة العصر والوسط الذي عاش فيه ، وهو يشارك هذا الوسط معتقداته فيدوّن قصصاً يمكن أن نجد لها مثيلاً في المصادر الإسبانية المعاصرة له ولو أنها لا تعدو أن تكون من صنع مخيلة العصور الوسطى كما أثبت البحث العلمي الحديث ، ويجب أن نضيف إلى مزايا كتابه سلاسة الأسلوب وسهولته وخلوّه من التنميق ، وذلك باستثناء المقدمة التي حاول أن يلتزم فيها أسلوباً أدبياً رفيعاً ويزيّنها بالاقتباسات والشواهد من محيط الأدب العربي المسيحي ، أما في بقية الكتاب فإنه لم يهتم كثيراً للشكل بل ركز اهتمامه في عرض الوقائع ، ورغماً من أنه جهد في استعمال اللغة الأدبية فكثيراً ما وجدت طريقها إليه الألفاظ المحلية والكلمات التركية ، بل وحتى أساليب لغة المخاطبة اليومية ، غير أن هذا لم ينتج عنه تعقيد ما في فهم الكتاب ، ومن الممكن أن نعتبر رحلة إلياس الموصلي أثراً جغرافياً يتميز بالطرافة من نواح عدة ، ولو أن هذا لا يعطيه بطبيعة الحال حق الانضواء إلى الآثار (الكلاسيكية) المعروفة لنا ، ورأي المستشرق الروسي غوردليفسكي V.A. gordlevski وإن كان لا يخلو من التحفظ ، إلا أنه رأي صائب بوجه عام ، فهو يقول عنه : (وهو قد دوّن في يومياته جميع ما رآه واعتقده جديراً بالذكر ولو أن أفقه الفكري محدود بصورة لا تسمح له بالدخول في مجال الاستقراءات والتعميمات الواسعة ، وهو نادراً ما يبدي ملاحظات تمثل أهمية ما من وجهة النظر العامة) .

وبعد مضي مدّة طويلة على ظهور الطبعة تم الكشف عن مخطوطات أخرى لوصف رحلة إلياس الموصلي لا في الموصل وحدها ، بل أيضاً في بغداد والقاهرة ، وحتى في

مكتبة ديوان الهند (india office) بلندن ، وجميعها تسمح بإدخال تصحيحات على النص الذي نشره رباط ، أضف إلى هذا أنه قد عُرفت تفاصيل عنه وعن البيئة التي نشأ فيهما بالعراق لذلك العصر ، غير أن معلوماتنا عن سني حياته الأخيرة طفيفة كما هو الحال من قبل ويرجع آخر ذكر له إلى عام 1693 .

أغناطيوس يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي

«تاريخ الأدب الجغرافي العربي»

الطبعة الروسية 1957 الطبعة العربية 1961

ملحق (2)
مقدمة الأب أنطون ربّاط اليسوعي

الشرقيون مغرمون بالأسفار. ذلك أمر يشهد بهِ التاريخ القديم والحديث وتثبتهُ الرحلات العديدة التي أَلَّفوها، واصفين بلاداً تكاد أن تكون مجهولة حتى في أيامنا، لكننا لم نكن نعرف أن أحداً منهم ساح منذ قرنين ونيف في أكثر البلاد الأمركيَّة، وزار مدنها وولاتها وشعبها وتفقَّد، أحوالها. ولم نعثر قط في المكاتب على ما يُستشف منهُ ذكر سياحة كهذه.

ففي أواسط أيَّار من السنة الحاضرة، بينما كنّا نطالع المخطوطات المحفوظة في مطرانية السريان بحلب، استلفت نظرنا كتاب عربي عنوانهُ «سياحة الخوري إلياس الموصلي» فاختلسنا أويقات الفراغ لقراءَته، وأخذنا العجب لما رأينا كاهناً شرقياً قد زار أكثر الأنحاء الأمركيَّة في القسم الثاني من القرن السابع عشر، ووصفها وصفاً لا يخلو من اللذَّة، فعوَّلنا على تعريف الكتاب ونشر أهم فصوله.

ولمَّا عرضنا فكرنا على سيادة الحبر الجليل العلامة ديونيسيوس أفرام نقاشه مطران السريان الكاثوليك في الشهباء، أذن لنا باستنساخهِ ونشرهِ، وكان قبولهُ لطلبنا شاهداً لنا جديداً على ما ازدان بهِ من لطف الشمائل وكرم الطباع الذكيَّة. وأثنى على همَّتنا كما اعتاد الثناء على كل عمل يؤول إلى تعريف الشرق المسيحي، ونشر تاريخهِ. فليتنازل سيادتهُ ويتقبَّل خالص شكرنا.

السائح هو الخوري إلياس ابن القسيس حنّا الموصلي الكلداني من عائلة بيت عموده. ولقد نظرنا في الكتب المطبوعة والمخطوطة التي بين أيدينا فلم نصل حتىّ الان إلى زيادة تعريف.

وليس في رحلتهِ ما ينبئنا بشيء عنهُ خلا أنهُ ذكر ابن أخ لهُ اسمهُ يونان أنجز في سنة 1670 دروسهُ في عاصمة الكثلكة، ومنها رجع إلى حلب. فرجاؤنا من ذوي الخبرة أن يتحفونا بما يزيل الشبه عن صاحب الرحلة فنكون له من الشاكرين.

الرحلة

في سنة 1668 سافر الخوري إلياس الموصلي من بغداد لزيارة القدس الشريف ، وبعد أن قضى مدَّة في حلب أبحر من إسكندرونة إلى البندقيَّة وايطالية وفرنسة وإسبانية والبرتغال وجزيرة صقليَّة ، ثم عاد إلى إسبانية وركب البحر من قادس إلى أمركة ، فمرَّ على جزائر كناري ووصل إلى قرطجنة في أمركة الجنوبيَّة بعد ٥٥ يوماً قضاها في البحر ثم ساح في جهات بناما ، ومنها تتبَّع المدن والقرى والمناجم غربي أمركة الجنوبيَّة ، فزار البلاد التي تدعى ، الآن ، كولومبية وخط الاستواء والبيرو وبوليفية إلى أعالي بلاد الحكومة الفضيَّة وشيلي . ومن هذه البلاد عاد على الأعقاب إلى ليما من أعمال البيرو سنة 1680 وهناك كتب القسم الأول من رحلتهِ . وما لبث أن سار الى البلاد التي يسميها ينكي دنيا ، أي المكسيك وأمركة المتوسطة . وبعد مدَّة قضاها في مكسيكو قفل راجعاً ، فركب البحر وعاد إلى إسبانية ، فرومية ، وتشرَّف بمقابلة الحبر الأعظم . قال في ختام رحلتهِ : «فأنعم عليَّ البابا إينوسنسيوس الحادي عشر صاحب الذكر الصالح بوظائف لم أكن أهلاً لها . والحمد لله إلى الأبد أمين» . ولم يذكر سبب رحلتهِ جليًّا لكنهُ يستشفُّ من غضون كلامهِ أنهُ ذهب ليجمع حسنات المسيحين لفائدة أهل جلدته . والله أعلم .

صفات السائح

هو كاهن كلداني كاثوليكي ذو إيمان بسيط وتقوى صادقة ، قليل الإلمام بالإنشاء والكتابة ، فيكتب ما يراهُ ببساطة ودقَّة وصدق . وقد تتبعنا سفرتهُ على خارطة كبيرة فرأيناهُ لم يغفل بلدة ولم تخنه ذاكرتهُ إلاّ نادراً . ولكنْ إنشاءهُ ركيك ووصفهُ خالٍ من التفنن ، خلا بعض فصول وشذرات . ومع ذلك فقد قرأناهُ بلذَّة لما يذْكر من الأمور الغريبة والتنقلات من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال . وفي كتابهِ أغلاط نحويَّة كثيرة أصلحنا أهمَّها تاركين لهُ سذاجة تراكيبهِ . ولا تخلو مطالعتهُ من فائدة يلتذّ بها السوريون المقيمون في البلاد التي زارها ، أعني وصف ما كانت عليهِ تلك البلاد ومقابلتها بما صارت إليهِ الآن بفضل التمدُّن والدين . وكل يعلم أن الشعوب التي كانت عليهِ تلك البلاد ومقابلتها بما صارت اليهِ الان بفضل التمدُّن والدين . وكل يعلم أن

الشعوب التي كانت في أدنى درجات الهمجيَّة أصبحت بفضل المرسلين في أعالي سلَّم الحضارة .

وهناك فائدة أخرى للأمريكين أنفسهم ، فإنَّ الرحلات ، وإن لم تندر ، لكنها مع ذلك لا تشفي الغليل وقد قابلنا بين رحلتهِ ورحلة بعض معاصريهِ ، فوجدنا رحلتهُ أهلاً لأن تنظم في مصافها .

وصف الكتاب

هو كتاب مخطوط مجلد تجليداً قديماً طول الوجه 21 سنتيمتراً في 15 س عرضاً وفي كل وجه 21 سطراً . وهو مكتوب بخط جلي غير متقن يحتوي 269 صفحة فمن 1 إلى 100 رحلة المؤلف يليها إلى صفحة 214 سبعة عشر فصلاً نقل فيها الرحّالة تاريخ افتتاح أمركة وأخبار ولاتها وشعوبها ، وليس في هذا القسم الثاني كبير فائدة وسنكتفي بنشر الرحلة . ومن صفحة 214 إلى الأخير رحلة سعيد باشا سفير الدولة العليَّة إلى فرنسة في سنة 1132 هجريَّة وهي رحلة معروفة باللغة التركية والإفرنسيَّة لم نجد ترجمتها العربية في غير هذا الكتاب ،

وليس الكتاب من خط المؤلف وهو خلو من تاريخ ينبئ بزمن نقلهِ أمّا عنوان الكتاب فهو : «صياحت (كذا) خوري إلياس الموصلي وهو كتاب (وهنا مُحي الاسمُ وحُكَّ لكنّا قرأنا) : حنا بن دياب الماروني في حلب ، ويليهِ ، جبرائيل بن يوسف قرمز في 5 كانون الثاني سنة 1817 . ولا نعرف للكتاب نسخة أُخرى في مكاتب أوربة ، ولعلَّ القراء الكرام يعرفون منهُ نسخاً أكمل من التي بيدنا ، فلهم الشكر سلفاً عن كل إفادةٍ يتكرَّمون بها من هذا القبيل . وهذا بدء الشروع في إيراد السياحة التي نحن بصددها .

الأب أنطون رباط

«المشرق» العدد 18- 15 أيلول/سبتمبر 1905

المحتويات

القسم الأول :
الرحلة الأوروبية : من بغداد إلى لشبونة

القسم الثاني :
الرحلة الأميركية

القسم الثالث :
الرحلة إلى المكسيك

القسم الرابع :
العودة إلى أوروبا

الملاحق

هذه الرحلة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه أقدم نص عربي عن القارة الأميركية وضعه الرحالة العراقي الياس حنا الموصلي الذي انطلق من بغداد سنة 1668 في رحلة إلى العالم الجديد استمرت نحو عشر سنوات، ليكون بذلك أول رحالة شرقي يغامر في الوصول إلى أميركا الوسطى والجنوبية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. الكتاب يصدر للمرة الأولى بالعربية، ويعتبر بحق وثيقة فريدة من نوعها عن أوضاع القارة الأميركية في فترة شهدت حمّى البحث عن الذهب والفضة، فضلاً عن قيمته كأثر أدبي لا يخلو من طرافة. رحلة الموصلي تكشف عن صور مؤلمة لأوضاع أحفاد حضارة المايا والإنكا وغيرهم من الأعراق التي سكنت القارة من أقدم الأزمنة. ورحالتنا العربي ينقل، بعفوية وحياد، قصصاً حزينة وأخباراً متواترة عن المصائر الفاجعة التي تسببت بها سعار النهب الاستعماري، وما كرسه العسف الأوروبي من خوف تأصل في الشخصية الوطنية لمن بقي حياً من السكان الأصليين لتلك البلاد.

ارتياد الآفاق

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع